

المكتبة الصوفية

رياضة النفس

للإمام الحافظ محمد بن علي الحكيم الترمذي
المتوفى سنة ٣٢٠ هـ

تحقيق وتعليق

أ.د. أحمد غب وعوض

أ.د. أحمد عبد الرحمن السايح

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

المكتبة الصوفية

رياضة النفس

للإمام الحافظ محمد بن علي الحكيم الترمذي
المتوفى سنة ٣٢٠ هـ

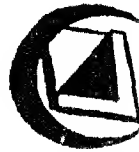
تحقيق وتعليق

أ.د. أحمد عبد الرحيم السايح أ.د. أحمد عبده عوض

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م
جميع الحقوق محفوظة للنشر

٢٠٠١ / ١٤٧٨٦	رقم الإيداع
977 - 341 - 058 - 7	I. S. B. N الترقيم الدولي



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد - الظاهر - القاهرة
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين حمداً يليق بجلاله وبجماله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر، وصاحب الشفاعة العظمى، وعلى آله وصحبه وذوى نسبه الكرام، وبعد ..

فقد ظهر الحكيم الترمذى فى فترة حرجة؛ كانت أحوج إلى ما تكون إلى الحكيم؛ الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى) وكان والد الحكيم من رواة الحديث الذين رحلوا فى طلبه، واشتغلوا بروايته.

وقد عاش الترمذى فى بيت علم، فكان أبوه وأمه وجدته من رواة الحديث، وأخذ كذلك عن كثير من شيوخ المحدثين فى عصره.

وفتح الحكيم الترمذى عينيه على حلقات العلم، وروايات الحديث، والدرس، منذ بدأ يعقل. لأن أباه كان أحد علماء الفقه بجانب رواية الحديث. وأخذ أبوه يغرس فيه حب العلم، وتحصيل المعارف، ويحمله على ذلك فى وقت مبكر؛ حتى امتلأ قلبه منذ الصبا بالإقبال على مذاكرة العلوم وتحصيلها.

وقد أخذ الحكيم الترمذى عن كثير من شيوخ المحدثين فى عصره، ومنهم أئمة فى الفقه، وفى الحديث، وفى التفسير، وفى اللغة.

وليس عجباً أن يتميز الحكيم الترمذى بعد ذلك؛ فقد شهد له معاصروه بالفضل، وأشادوا بتصانيفه فى أصول الشريعة، ومعانى الحديث،

وعلوم القرآن.

يقول عنه الهجویری المتوفى سنة ٤٧٠هـ فى كتابه "كشف المحجوب"
"محمد - أى الحكيم - در، یتیم؛ إذ لا قرین له فى العالم كله، وله كتب فى
علوم الظاهر، وإسناد عال فى الأحادیث".

وقال عنه العطار فى (تذكرة الأولياء): السليم السنة، عظیم الملة،
مجتهد الأولياء، منفرد الأصفیاء حرم القدس، شیخ الوقت: محمد بن على
الترمذی رحمة الله علیه، الختشم بین الشیوخ، المحترم بین أهل الولاية، الداعی
بكل اللغات، الشارح لمعانى الأحادیث والآیات.

كان آية فى شرح المعانى، والثقة فى الحديث، ورواية الأخبار،
والأعجوبة فى بیان المعارف، والحقائق الكاملة القبول.

العظیم الشفقة، العجیب الحلم، العالی الخلق، صاحب الرياضیات
والكرامات، الكامل فى فنون العلم، والمجتهد فى الشریعة والطریقة.

وصاحب (كنوز الأولياء) يقول عنه: من كبار المشایخ، وهو مجتهد فى
الشریعة والطریقة، وله مصنفات فیهما، ولم یقلد أحداً. كان أعجوبة الدهر فى
العلم والحكمة والعطاء والفیض الإلهی.

والمخطوطة التى بین أیدینا، نقدمها القراء العربیة للحکیم الترمذی،
وهو أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن الترمذی، وعنوانها (الریاضة) تدخل
فى إطار الفتح الربانى الذى عهدناه لدى هذا الرجل الملهم.

وتقرأ من خلالها کیفیة ریاضة النفس، وروضها. إلى طاعة الله عز

وجل، وتتعرف على الأكياس من الناس، وكيف أن الأنوار تشرق على قلوبهم، وتنقاد نفوسهم.

ثم يحدثنا الحكيم عن الفرح المحمود للمسلم، وأقسامه من فرح بالله عز وجل، وفرح بفضل الله ورحمته، وفرح بقاء الله عز وجل.

ويوازن الحكيم بين نور المعرفة ونور العقل، وينتهي إلى أن أهل الجاهدة فرقتان :- فرقة حفظت الجوارح، وأدت الفرائض، وسارت إلى الله عز وجل قلباً، فلم تعرج على شيء حتى وصلت إلى الله عز وجل.

وفرقة حفظت الجوارح، وأدت الفرائض بجهد وتعب، ومع ذلك هناك تخليط وتهافت في الخطايا، وأدناس لا يسلم منها.

ويركز الحكيم التزمذي على كيفية الحفاظ على الجوارح، وكيف أن الجوارح أسلمت آدم إلى معصيته تعالى، وكيف يستطيع المسلم ترويض جوارحه ونفسه لطاعة الله عز وجل.

ويميز الحكيم بين الوسيلة والوصيلة، وعلاقة ذلك بالتقوى، وكيف أن جهاد الصديقين يكون بابتغاء وسيلة الهيم والحزن، وكلما ازداد قريهم اشتد شوقهم فازدادوا حتى عطشت قلوبهم، وامتازت أحزاناً، حتى قطعوا الحياة والعمر بالأحزان.

ويفصل الحكيم القول عن حديث حارثة رضي الله عنه، وما فيه من إشراقات واستحضار لمشاهد القيامة، والنجاة في لزوم ذلك (أبصرت فالزم، عبد نور الله قلبه).

ويأخذنا بعد ذلك إلى صراع الشيطان مع الإنسان، ووسائل الغواية لديه، وكيف أن جنود الله من الملائكة يردون كيده، ويعصمون الصالحين من العباد.

وفي هذا يذكر المؤلف صفات الملائكة وأدوارهم ومهامهم وأصنافهم وعبادتهم.

ويختتم الحكيم بيان كيفية تأديب المسلم نفسه، وأخذها إلى تقوى الظاهر والباطن، وكيف يستعين على ذلك برؤية الموتى والمقابر وأهل السجون حتى يرث الهم والحزن، وعندئذ يدخل في قوله ﷺ (ما عبد الله عز وجل بمثل طول الأحرار).

رحم الله الحكيم الترمذى، وقدس الله روحه، وجعل هذا العلم فى ميزان حسناته، وعفا الله عنه وعنا، وجمعنا وإياه فى مستقر رحمته سبحانه. اللهم صلى وسلم على سيد الأولين وخير الآخرين وعلى آله وأصحابه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المحققان

أ.د. أحمد عبد الرحيم السايح أ.د. أحمد عبده عوض

مقدمة الكتاب

قال أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن الترمذى رحمة الله عليه:

الحمد لله رب العالمين، ولى الحمد وأهله. أما بعد.

فإن الله تعالى خلق الآدميين لخدمته، وخلق ما سواهم سخرة لهم، فقال تعالى فى تنزيله: ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً﴾^(١)، ثم قال: ﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه﴾^(٢)، فجعل فى كل مسخراً لما يحتاج إليه هؤلاء الخدم، وما يرجع نفعه إليهم.

وهم كلهم قانتون، يؤدون السخرة إلى هؤلاء الخدم، فأظهر خلقهم من القدرة بقوله: ﴿كن﴾^(٣) وأظهر خلق هؤلاء الخدم من المحبة بيده، فعجن طينته، وصوره بيده، ثم جعله ذا أجزاء، كل جزء منه يعمل عملاً غير عمل الآخر، ثم نفخ فيه من روحه، وهو روح الحياة^(٤).

(١) سورة البقرة، آية ٢٨.

(٢) سورة الجاثية، آية: ١٣.

(٣) نقرأ فى هذا قوله تعالى ﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ البقرة ١١٧ - ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ آل عمران ٤٧ ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ يس ٨٢.

(٤) هذا المعنى موجود فى قوله تعالى ﴿الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ السجدة ٧ - ٩.

ونفست الطينة^(١) فبدت النفس واستقرت، وتنفسست في الجوف. فجعل
ظاهره يدين ذواتي أصابع ومفاصل. يبسط ويقبض، ورجلين موشجتين في
الوركين، ذواتي ساقين، وقدمين.. يختلف بهما في قطع المسافات، وعينين بهما
يشتمل على الألوان لذة وجهدا، وأذنين بهما يتناول الأصوات لذة وخبرا، ولسانا
يديره في قبو حنكه إلى شفثيه ليتلفظ بنعماته من صدره إلى شفثيه.

مؤدية تلك النغمات معاني الأمور التي يعقل، وتتردد في صدره صور تلك
الأمور، فتصير تلك الصور حروفا مؤلفة، فيبرزها بصوت يسمع به آذات المستمعين
له، حق تصير تلك الأسماع قمعا لهذا الصوت، فيتحول ما في صدر هذا من علم
الأمور، إلى صدر المستمع من طريق فم هذا إلى أذن الآخر.

فيكون قد أفرغ ما في صدره من صور الأمور، ومعانيها بالحروف
والصوت، إلى صدر صاحبه.

وجعل له منخرين للنفس والمشام، ومعدة صيرها دار رزقه، وباب هذه
الدار متصل بالقبو، وباين في أسفل جسده، أحدهما مخرج للدريسة، والآخر مخرج
الفضول والأذى، وذلك أن العدو لما غره حتى أكل من الشجرة، وجد السبيل إلى
معدته بتلك الأكلة التي أطاعه فيها، فجعله مستقره، فتن ما في المعدة لرجاسة
العدو.

فمن هاهنا وجب علينا غسل الأطراف مما يظهر من المعدة من الغائط.

(١) نفست من تنفس ونفس وهى دليل الحياة ومظهرها، والنفس: الريح تدخل وتخرج من أنف الحي
ذى الرئة وفمه حال التنفس.

ونفست الطينة : دبت فيها الروح

والبول وريحهما.

ثم وضع في جوفه بضعة جوفاء سماها قلباً وفؤاداً، فما بطن منها فهو القلب، وما ظهر منها فهو الفؤاد.

وإنما سمي قلباً لأنه ينقلب بتقليب الله عز وجل إياه، لأنه بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل، يقلبه بمشيئاته فيه، وسمى فؤاداً لأنه غشاء لتلك البضعة الباطنة، ومنه يقال: هذا خبز فئيد، وخبز ملة^(١)، لأنه خبزة قد ظاهرها أخرى.

وجعل له على هذا الفؤاد عيين وأذنين، وباباً في الصدر، وصير القلب بيتاً له عيان وأذنان، وباباً في الصدر، وجعل الصدر ساحة هذا البيت، وجعل إلى جانبه بضعة أخرى سماها كبداً.

وجعلها مجمع عروق هذا الجسد كله، ومنه ينقسم ما يخرج من المعدة من قوة الطعام الذي طحنته المعدة، حتى صار دماً طرياً، فجرى في جميع العروق.

وألصق بأسفله بضعة أخرى، فسماها طحالاً، وإلى جانب الأخرى سماها رئة، ومسكن النفس فيها، ومنها تتنفس النفس لحياتها التي فيها، فتخرج الأنفاس إلى الفم والمنخرين.

ثم وضع بين القلب والرئة وعاء رقيقاً، فيه ريح هفافة، تجرى في العروق مجرى الدم، وأصل تلك الريح من باب النار، مخلوقة من نار جهنم، لم يصل إليها سلطان الله وغضبه، فتسود كما أسودت جهنم.

بل هي نار مضيئة حفت النار بها، موضوع هذه النار الفرح والزينة،

(١) خبز الملة قال العلماء: ما يخبز في الملة، وهي الرماد الحار يحمى ليدفن فيه الخبز لينضج.

وسماها شهوة، وإنما سميت شهوة لاهتشاش النفس إليها، يقال، اهتشت واشتتهت.
الاهتشاش فى الظاهر، والاشتهاى فى الباطن، وكلاهما فى الحروف
عددهما سواء، إلا أنه قدم الهاء هاهنا وآخر هناك، ليكون فرقاً بين النوعين.

فالنفس إذا هبت تلك الريح من ذلك الوعاء لعارض ذكر شىء، أحسست
النفس بذلك، فالتهبت نار الحرارة بتلك الريح، والنفس مسكنها فى الرئة، ثم هى
منفشة فى جميع الجسد، والروح مسكنه فى الرأس إلى أصل الأذنين، ومقلها فى
الوتين، وهى منفشة فى جميع الجسد، والروح فيه حياة، والنفس فيها حياة، فهما
يعملان فى جميع الجسد لحياتهما.

حتى تتحرك الجوارح فى جميع الجسد فى الظاهر والباطن بالحياتين اللتين
وضعتا فيهما، والروح نور فيه روح الحياة، والنفس ريح كدرة جنسها أرضية،
وفيهما روح الحياة. ووضع الرحمة فى الكبد، والرأفة فى الطحال، والمكر فى
الكليتين، وعلم الأشياء فى الصدر.

وجعل مستقر الذهن فى الصدر، ثم هو متفش فى البدن كله، والدهن يقبل
العلم جملة، وقربنه الحفز، وجعل فى ناصيته الفهم، وجعل له طريقاً إلى عين الفؤاد
فالحفظ مستودع العلم.

فإذا احتاج الفؤاد إلى شىء لحظ إلى الحفظ، فأبرز الحفظ له علم ذلك الشىء
المستودع الذى قد تعلمه.

وجعل ماء الذرية فى صلبه، فمنه ماء أخذ عليه الميثاق يوم أخرجهم من
الظهور، فعرضهم على آدم صلى الله عليه وسلم، ومنه ماء لم يؤخذ عليه الميثاق،
وجعل مجراه من صلبه إلى نفسه. ووضع الفرح فى قلبه، وجعل مجراه إلى صلبه،
لتأدى حرارة ذلك الفرح إلى الصلب، فتذيب ماء الصلب، فبقوة هذا الفرح يخرج

ذلك الماء، فيدفع به، وإنما صار دفقا لقوة الفرح، وهبوب رياحها، وضيق المخرج.
فإذا افتقد الإنسان الفرح عجز عن الدفع. فهذا لعامة الآدميين. ثم خص
المؤمنين بنور العقل، فجعل مسكنه في الدماغ، وجعل له بابا من دماغه إلى صدره،
ليشرق شعاعه بين عيني الفؤاد، ليدبر الفؤاد بذلك النور الأمور، فيميز بين الأمور
ما حسن منها وما قبح.

ووضع نور التوحيد في باطن هذه البضعة، وهي القلب، وفيه نور الحياة
فحيى القلب بالله تبارك وتعالى، وفتح عيني الفؤاد، فأشرق نور التوحيد إلى الصدر
من باب القلب فأبصر عينا الفؤاد بنور الحياة التي بها نور التوحيد، فوحده الله عز
وجل، وعرفه.

وميز العقل تلك العلوم التي أعطى الذهن في صدره جملة، فيصيرها شعبا
شعبا، فصارت معرفة حين انشعبت، فهذا عمل العقل في الصدر.

صفات ظاهرة وباطنة

والهوى أصله من نفس النار، فإذا خرج ذلك النفس من النار، احتمل من
ذلك الحفوف من الشهوات بباب النار فيها الزينة والأفراح، فأورد على النفس.

فإذا نالت النفس ذلك الفرح والزينة، هاجت بما فيها من الفرح والزينة
الموضوعة إلى جانبها في ذلك الوعاء، وهي ريح حارة، فدبت في العروق، فامتلاّت
العروق منها في أسرع من الطرفة.

والعروق مشتملة على جميع الجسد، من القرن إلى القدم، فإذا دبت في
العروق، ولدت النفس ديبها وانفشاشها في الجسد، وامتلاّت النفس لذة، وهشت

إلى ذلك الشئ، فتلك شهوتها ولدتها.

فإذا تمكنت النفس بتلك الشهوة واللذة من جميع الجسد، فصارت تلك الشهوة نهمة على القلب، والنهمة غلبة الشهوة وغليانها، فإذا غلبت الشهوة غلبت على القلب، فيصير القلب منهوماً، وهو أن تقهر القلب حتى تتمنه، فتستعمله بذلك، فيصير سلطان الهوى والشهوة مع النفس ومسكنها في البطن.

وسلطان المعرفة والعقل والعلم والفهم والحفظ والذهن في الصدر، وجعل المعرفة في القلب، والفهم في الفؤاد، والعقل في الدماغ، والحفظ قريبه.

وجعل للشهوة باباً من مستقره إلى الصدر، يفور دخان تلك الشهوات التي جاء بها الهوى، حتى يتأدى ذلك إلى الصدر، فيحيط بفؤاده، وتبقى عينا الفؤاد في ذلك الدخان، وذلك الدخان اسمه الحمق، قد حال بين عيني الفؤاد وبين النظر إلى نور العقل ماذا يدبر له.

وكذلك الغضب إذا فار، فهو كالغيم يقف بين عيني الفؤاد حتى يصير العقل منكماً، لأن العقل مستقره في الدماغ، وشعاعه مشرق إلى الصدر، فإذا خرج ذلك الغيم (غيم الغضب) من الجوف إلى الصدر، امتلأ الصدر منه، وبقيت عينا الفؤاد في ذلك الغيم.

لأن شعاع العقل قد انقطع، وحال الغيم بينه وبين الفؤاد، فصار الفؤاد من الكافر في ظلمة الكفر، وهي الغلفة التي ذكرها الله تعالى في التنزيل: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾^(١) وقال تعالى: ﴿هل قلوبهم في غمرة من هذا﴾^(٢). وصار الفؤاد من

(١) سورة البقرة: الآية ٨٨.

(٢) سورة المؤمنون: آية ٦٣.

المؤمن في دخان الشهوات وغيوم الكبر، فذلك غفلة.

ومن الكبر أصل الغضب والكبر في النفس. لما أحست بما ولى الله تعالى من خلقها، فبقي ذلك الكبر فيها. فهذه صفة ظاهرة الآدمي وباطنة.

فوقعت الجباية من الله تعالى والخيرة على هذا الموحد، من كل ألف واحد، وبقي تسع مئة وتسعة وتسعون، رفع البال عنهم، وجعل باله لواحد من كل ألف من الآدميين، فقسم الخطوظ يوم المقادير بالبال، ورفض من لم يبال به، فخابوا عن الخطوظ.

فلما استخردهم ذرية من الأصلاب استنطقهم، فاعترف له أهل الخطوظ من باله، طوعا لقوله عز وجل حين قال: ﴿ألست بربكم﴾^(١). واعترف من خاب عن الخطوظ، ومن لم ينل من باله بقوله ﴿بلى﴾ كرها، فذلك قوله عز وجل: ﴿وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها﴾^(٢)، فيصيرهم فريقين: عن اليمين وعن الشمال.

ثم قال تعالى: هؤلاء فى الجنة ولا أبالى، أى لا أبالى بمغفرتى أن تنالهم، وهؤلاء فى النار ولا أبالى، أى ولا أبالى بهؤلاء إلى أين بصيرون.

ثم ردهم إلى صلب آدم عليه السلام، فيخرجهم فى أيام الدنيا للأعمال وإقامة الحجة فكل من وقعت عليه جبايته واختياره له، وصبغ قلبه، أى غمس قلبه فى ماء الرحمة حتى طهر به، وهو قوله عز وجل ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾^(٣).

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

ثم أحياء بنور الحياة وقد كان قبل ذلك بضعة من لحم جوفاء.

فلما أحياء بنور الحياة تحرك وفتح عينيه اللتين على الفؤاد، ثم هداه بنوره، وهو نور التوحيد، ونور العقل، فلما أشرف في صدره، واستقر الفؤاد وهو القلب إلى ذلك النور، فعرف ربه عز وجل بذلك، فذلك قوله عز وجل: ﴿أومن كان ميتا فأحييناه﴾^(١)، أى بنور الحياة.

ثم قال تعالى: ﴿وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس﴾^(٢)، أى نور التوحيد يمشى من ذلك النور فى الناس.

ثم أوله قلبه بذلك النور إليه، حتى اطمأنت النفس وسكنت إلى أنه وحده لا إله غيره فعندها نطق اللسان عن طمأنينة النفس وموافقتها للقلب بلا إله إلا الله، وذلك قوله عز وجل: ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ وهو قوله عز وجل: ﴿يا أيها النفس المطمئنة﴾^(٣).

فلما اطمأنت النفس حين رأت تلك الزينة التى زين العقل بين عيني الفؤاد توحيد الرب عز وجل، وجدت حلاوة حب الله تعالى، التى وردت على القلب مع نور التوحيد، فلما رأت تلك الزينة وجدت حلاوة الحب الذى فى نور التوحيد، فعندها اطمأنت وسكنت إلى توحيده، فشهدت بلا إله إلا الله، وذلك قوله عز وجل: ﴿حب إليكم الإيمان وزينة فى قلوبكم﴾^(٤).

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢.

(٣) سورة الفجر: الآية ٢٧.

(٤) سورة الحجرات: آية ٧.

فلما نالت النفس تلك الزينة كرهت الكفر والفسوق والعصيان.

فالمؤمن إذا أذنب فإنما يعصى بالشهوة والنهمة وهو كاره للفسوق والعصيان، ومع الكراهية يفسق ويعصى بغفلة، ولا يقصد الفسق والعصيان كما قصد إبليس.

فتلك الكراهية موجودة فيه، والشهوة غالبة عليه، والكراهية من أجل العتوحيد الذى فيه، إلا أن القلب مقهور بما فيه، والعقل منكمن، والصدر ممتلى من دخان تلك الشهوة، والنفس بما أوردت قاهرة للقلب.

لأن العقل قد غلب، والمعرفة قد انفردت، والذهن قد تبدد، والحفظ مع العقل منكمن فى الدماغ، والنفس قد قامت على ذنبها، بما وجدت من القوة فى تلك الشهوة، والعدو يزين ويرجى ويمنى المغفرة، ويدل على التوبة، حتى يجرته قلبا ويشجعه.

المجاهدة

فلما كان العبد بهذه الصفة، أما بالمجاهدة، فقال عز وجل: ﴿وجاهدوا فى الله حق جهاد﴾^(١).

ثم لما علم أن المجاهدة تشتد وتصلب على العباد، أخبرهم عن منته وحسن صنيعه، وبره، ولطفه بهم، فقال عز وجل: ﴿هو اجتباكم، وما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾^(٢).

(١) سورة الحج: آية ٧٨.

(٢) سورة الحج: آية ٧٨.

يعلمهم أنه لو لم يجتنبهم، ولم يوقع اختياره عليهم، ما كانوا ينالون نور الرحمة ونور المعرفة، وكانوا أسارى فى يد العدو، وخطبا للنار، فأخبرهم أنه اجتنابهم.

ثم قال عز وجل: ﴿ما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾^(١). يعلمهم أنى حين ألزمت جوارحكم أمرى ونهى، لم أضيق عليكم حتى تخرجوا، بل أبحث لكم، ووسعت عليكم ما لا يضيق عليكم، حتى تفرغوا إلى الحرام.

ولم أهلكم فرانضى قولا تعجزون عنه، ووسعت لكم فى كل فريضة ما لم يضيق عليكم، وكل شهوة منعتكم عنها، أطلقت لكم من بعضها، فوضعت على كل جارحة من هذه السبع حداً، ووكلتكم يحفظها.

والجوارح السبع هى اللسان، والسمع، والبصر، واليدان، والرجلان، والبطن، والفرج وجعلت مستقر هذه الشهوة فى البطن.

فإن انتهى الكلام خرج سلطان تلك الشهوة إلى الصدر وإلى القلب، والقلب أمير على هذه الجوارح، فإذا غلب سلطان الشهوة وحلاوتها ولذتها على القلب، وانكمن سلطان المعرفة وحلاوتها ولذتها فى القلب، وسلطان العقل وزينته وبهجته فى الدماغ، تحير الذهن عن التدبير، وحمد نور العلم فى الصدر، فظهرت المعصية على الجوارح.

وإذا غلب سلطان المعرفة ولذتها وحلاوتها، وسلطان العقل وزينته وبهجته، احتد الذهن، واستنار العلم، وانتشر وأشرف، وقرى القلب، فقام منصبا متوجها بعين فؤاده إلى الله تعالى، وجاء المدد والعطاء، وظهرت العزيمة على ترك المعصية العارضة.

(١) سورة الحج: آية ٧٨.

فإذا ظهرت العزيمة وجد القلب قوة على زجر النفس، ورفض ما عزمت عليه، فانقمعت النفس وذابت، وسكن غليان الشهوة، وماتت اللذة، وسكنت العروق، ودرست صورة تلك المعصية عن الصدر، وتخلص العبد.

فأمر بالمجاهدة إذا عرض ذكر شيء على الصدر، وقد حرم الله عز وجل الشيء عليه وذلك أنه لما عرض الذكر اهتمت النفس لما هاجها الهوى، وأورد العدو الزينة التي وضعت بين يديه، وجعل له السبيل إلى صدره ليزين.

وتلك الزينة هي الفرج الذي وصفنا أنه بباب النار، فأصله الفرج، وحشوه الزينة، وكلاهما من النار خلقاً، سميت شهوة لاهتشاش النفس، وهو قول رسول الله ﷺ "حفت النار بالشهوات".

ولذلك قال عمر رضي الله عنه في خطبته: "إن العدو مع الدنيا، وأرصاده مع الهوى ومكره في الشهوات".

فإنما يصير العدو إلى العباد مع أفراح الدنيا وزينتها، ويرصد الهوى الذي يهيج من الآدمي، ويمكر به إذا اشتتت النفس.

وإنما صار مكرراً لأن هذه الشهوات بعضها مطلق، وبعضها محظور، فيمكر به في المطلق له، ليجره إلى المحظور عليه، لأن النفس بلهاء، فإذا مرت في الحلال، فتمكنت منه، سلسلت في الحرام، إذا لم يكن في القلب ما يقيد النفس عن الحرام، ويقويها حتى لا تسلس، وقوة القلب من النور فإذا جاهد العبد، فمن جهاده أن يروض نفسه فيؤديها.

وأدب النفس أن يمنعها الحلال، [أدب النفس] حتى لا تطمع في الحرام، وذلك أن النفس قد اعتادت لذة التكلم بالكلام، فإذا لم يلزمها الصمت فيما لا بد

منه، حتى تعتاد السكون عن الكلام فيما لا بد منه، فقد ماتت شهوة الكلام، فاستراح وقوى على الصدق، فلا يتكلم إلا بحق، فصار سكوته عبادة، وكلامه عبادة لأنه إن نطق نطق بحق، وإن سكت سكت بحق، لأنه سكت مخالفة الرéal.

وكانت شهوة النظر، فاعتادت النفس لذة رمى البصر حيثما وقع، من غير مبالاة، فإذا لم يلزمها الخفض عما لا بد منه، وهو أن يكون خاشع الطرف، خافض النظر، اعتادت نفسه رمى البصر، لتدرك الأشياء.

فإذا أرى الحرام لم يملك بصره، لأن شهوة النظر قد أخذت بعينه فملكته، فإذا ألزم عينه الغض عن النظر، ورمى بها إلى الأرض إذا مشى وقام وقعد، ماتت شهوة النظر إلى الأشياء، واعتادت غض البصر وحفظه، فإذا نظر نظر بحق، وإذا غض غض بحق، وصار نظره عبادة، وغضه عبادة.

وكذلك شهوة السمع واليدين والرجلين والبطن والفرج. فاجاهدة هاهنا إذا عزم العبد على مجاهدة النفس، ألزم كل جارحة من هذه الجوارح السبع الفطام عن عملها حلالاً كان أو حراماً، حتى تموت تلك الشهوة.

لأن تلك الشهوة هي شهوة واحدة، أحل له بعضها، وحرم عليه بعضها، بلوى من الله تعالى لعباده، وتديراً لهم، فما علم أنه يصلح لهم ويصلحون عليه أطلقه لهم، وما علم أنه يفسدهم وأنهم يفسدون عليه حظره عليهم فالمطلق حلال، والمحظور حرام.

وذلك مثل الكلام، فهي شهوة واحدة، بعضها حلال، وبعضها حرام، فالاستماع إلى الأصوات بعضه حلال، وبعضه حرام، والنظر إلى الأشياء بعضه حلال، وبعضه حرام، والأخذ والإعطاء بعضه حلال، وبعضه حرام.

وكذلك المشى، والبطن والفرج كذلك، وإنما هى شهوة واحدة لكل جارحة، أحل للعبد إمضاء تلك الشهوة، وقضاء تلك النهمة، بصفة وهينة، وحرم عليه بصفة أخرى وهينة، كالمرأة يطؤها بالنكاح فتحل، ويطؤها بغير نكاح فتحرم عليه، وكذلك كل شئ خرج من هذه الجوارح من الحركات.

وقد أخذ عليه يوم الميثاق إلا يعمل جارحة إلا بما أطلق له فى التنزيل، وعلى السنة الرسل، وقبل العبد ذلك يومئذ فأوثقه بما ضمن فاقترضه الرفاء، ولذلك سمي بالعجمية "بنده" لأنه أوثق بما قبل من الطاعة فى الأمر والنهى.

فإذا وفى له بتلك البندكية، وفى له بالعهد، وهى الجنة، فقام العبد بمجاهدة النفس عندما يعرض ذكر شهوة محرمة عليه، فعلى العبد أن يجاهدها بقلبه، بما فيه من المعرفة، وتعلقه بالمواعظ التى وعظه الله عز وجل، من الوعد والوعيد، وذكر الموت والحساب والقبر والقيامة، حتى يزجر النفس والعدو.

فإذا كان العبد لم يرض نفسه قبل ذلك ولم يؤدبها، ولم يعودها رفض ما ذكرنا بدءاً من رفض هذه الشهوة المطلقة له. حتى تذلل وتسكن، ويلزمها خوف الله عز وجل وخشيته لم يملك نفسه عند ذكر ما يعرض لها، ولم يقدر على تسكينها، بل هى تغلب القلب بما فيها من سلطان الفرح، والزينة، والشهوة، فيصير القلب أسيراً للنفس، بعد أن كان أميراً على النفس.

لأن إمارة القلب بالمعرفة، وبما أعطى من هذه الأنوار التى وصفنا، ومن نور العقل، ونور الحفظ، ونور الفهم، ونور العلم، ونور السكينة. فأجهل للعبد فى الأمر.

فقبل له: جاهد فى الله عز وجل حق جهاده، فمن لم يرض نفسه قبل ذلك،

فإذا جاهد فربما غلبَ وربما غلبَ، فلذلك يوجد العبد مرة طائعاً، ومرة عاصياً في شهوة واحدة.

[الأكياس]

فأما الأكياس فراضوا أنفسهم، فأدبوها.^(١) فامتنعوا من الحلال المطلق لهم، حتى هدأت جوارحهم، وإنما هدأت وسكنت لسكون غليان شهوة النفس، فإذا استعملوها كان القلب أميراً قاهراً، فاستعمل تلك الشهوة بما يريه العقل، ويزين له، ويحد له. فيذدب بأدب الله عز وجل الذي أدبه.

فهناك يملك نفسه أن تقف على الحلال. فلا تجاوزه، فهو ينطق، فإذا بلغ في منطقته مكاناً يصير ذلك الكلام عليه غيبة أو كذباً، ملك نفسه، فامتنع وتورع. لأن شهوة الكلام قد ماتت منه. فهو يتكلم لله عز وجل، وابتغاء مرضاته. وكذلك النظر، إذا كان قد راوض نفسه. حتى ماتت منه شهوة النظر، ملك نفسه عند الحرام، وملك السمع، وسائر الجوارح السبع.

روى أن سهل بن على المروزي - رحمه الله تعالى - كان إذا مشى في السوق حشى أذنيه بالقطن،^(٢) ورمى ببصره إلى الأرض. وكان يقول لامرأة أخيه

(١) رياضة النفس وترويضها أى تهذيبها الأخلاق النفسية ملازمة العبادات والتخلي عن الشهوات. ويقال : روض الشئ : ذلله ، وراض نفسه بالتقوى.

(٢) هذا مبدأ عظيم فى حفظ الجوارح من الوقوع فى الآثام وذلك بغض البصر، وحفظ اللسان، وحفظ السمع، وحفظ اليدين والرجلين، وحفظ الفرج، وعدم إدخال مال حرام على بطن الإنسان، وأن يتسم بسلوك الورع واتقاء الشبهات، نقرأ بعضاً من هذه المعاني فى قوله تعالى ﴿إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئَلٌ﴾ الإسراء ٣٦.

وهي في الدار معه: استترى مني.

وكان ذلك دأبه زمانا، ثم ترك ذلك ورمى بالقطن، ورفع بصره إلى الناس. وقال لامرأة أخيه، كوني كيف شئت، فذلك منه حيث وجد شهوته ميتة.

وروى عن عامر بنى عبد قيس - رحمه الله تعالى - أنه قال: ما أبالي إمراة لقيت أو حائطا..

وروى عن بعض التابعين أنه قال: ألزمت نفسي الصمت بحصاة جعلتها في فمي. وكان إذا أكل أخرجها، وإذا فرغ وضعها في فيه. وكذلك إذا صلي، فبقي في ذلك أربعين سنة، حتى لزمت نفسه الصمت فرمى بها.

وروى لنا عن رسول الله ﷺ أنه مر برجل يعيث في صلاته بلحيته. فقال: "لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه"^(١) وإنما يخشع القلب بما يتجلى له من عظمة الله - عز وجل جلاله - ويهيج من النفس الخوف، والخشية والحياء منه، فيوجل القلب، فإذا خافت النفس، وخشيت فوجل القلب، واستحيا. سكنت الجوارح، وملك القلب جوارحه، ووقف بها على الحدود.

فإذا ترك الرياضة أحاطت بالقلب فورات الشهوات، وحلاوتها، وزينتها كالدخان، والغيم، فلم يستعين إشراق الأنوار، واكملت الأنوار بما فيها من السرور، والبهجة، والزينة، والحلاوة، واللذة.

فلم يتجل في الصدر نور العظمة، والسلطان، وافتقد صاحبه الخوف،

(١) حديث شريف مشهور يذكره أصحاب الحديث في باب الخشوع لكنه لم يرد في المعجم المفهرس الجامع لأحاديثه ﷺ.

والخشية، والحياء. أن يعملوا على القلب، والنفس فأصابته النفس. ففهمتها بما زين لها العدو، ومنها الغرور والأمانى الكاذبة، يعدها سعة المغفرة ووقارة الرحمة، وفيض العفو، والتجاوز، ويحدث نفسه بالتوبة ليتجراً على الذنب.

[الرياضة]

والأكياس بحثوا عن أصل هذه الأمور، ووجدوه - على ما ذكرنا - ، فخلصوا إلى الرياضة، فقالوا: إنما وجدنا النفس تأشر، وتبطر، وتستمر على الفرح، حتى تصير بحال من إمتلائها بالفرح بالأشياء، كالسكران الذى لا يفيق من سكره.

فكل شئ نالت من الدنيا من حال أو عرض، أو حال. مطلق لها أو غير مطلق فرحت، فذلك الفرح. سم يجرى فى العروق حتى يستحل على الجسد، ويمتلئ القلب من حلاوة ذلك الفرح، ويصير أشراً بطراً، لا يذكر موتاً، ولا قيامة، ولا حساباً، ولا شيئاً من أهوال القيامة.

فذلك فرح يميت القلب. وتستمر النفس عليه، وتطيب، وتستوى الشهوة وتحتد، فهذا فرح مدموم، ذمه الله عز وجل فى تنزيله، فقال: ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾^(٢).

(١) سورة الرعد آية : ٢٦.

(٢) سورة القصص آية : ٧٦.

ودل على الفرح الحمود، وندب إليه فقال عز وجل ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾^(١).

فإذا فرح العبد بما فضله الله عز وجل على سائر العبيد، فمن عليه بالمعرفة والعقل، فاستنار قلبه، وطابت نفسه، فتعاونوا على الشكر والحمد، فاستوجب المزيد، فقال عز وجل: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾^(٢)، ففرحه بذلك يجلب عليه المزيد، فهذا الفرح ترياق، وذلك الفرح سم.

فمن شرب الترياق لم يضره السم.

وإنما صار سمّاً. لأنه زينة، وفرح من جنس النار، وباب النار، وهو خط إبليس، فجاء به الهوى مع العدو إلى هذا الآدمي بهذه الأشياء الدنيوية ليبتليه، ليفرح بهذا أو يستعمله معرضاً لاهياً.

أو يقبل على ربه عز وجل، وداره التي مهدت له. فقد قال عز وجل في تنزيله: ﴿زين للناس حب الشهوات﴾^(٣).

ثم ذكر النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام والحراث. ثم قال تعالى ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾^(٤).

فإذا فرح العبد بهذين المزيّن، الذي قد خلص حب تلك الزينة، وشهوتها

(١) سورة يونس آية : ٥٨.

(٢) سورة إبراهيم آية : ٧.

(٣) سورة آل عمران آية : ١٤.

(٤) سورة آل عمران آية : ١٤.

إلى قلبه، وسماه الفرح. فإنه حسن المآب. فقد وصف الله - عز وجل - حسن المآب فقال: ﴿قُلْ أُوذِيكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ﴾^(١)، ثم بين لمن هي، فقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٢). فوصفها بما فيها، ثم بين المتقين من هم، فقال عز وجل: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

وقال عز وجل ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٣).

فمن شغله الفرح بهذه الزينة، وملك قلبه حب هذه الشهوات، فقد أهواه عن ذكر الله عز وجل، وفاته التقوى، والصبر، والصدق، والقنوت، وحجزه عن الإنفاق، ونومه عن الاستغفار بالأسحار.

فالرائضون راضوا أنفسهم وأدبوا بمنعها الشهوات التي أطلقت لهم، فلم يتمكنوها من تلك الشهوات إلا ما لا بد منه، كهينة المضطر، حتى ذبلت النفس وطفئت حرارة تلك الشهوات، ثم زادوها منعاً حتى ذبلت، واسترخت.

فكلما منعوها شهوة أتاها الله على منعها نوراً في القلب، فقوى القلب وضعفت النفس، وحيى القلب بالله جل ثناؤه، وماتت النفس عن الشهوات.

حتى امتلأ القلب من الأنوار، وخلت النفس من الشهوات فأشرق الصدر بتلك الأنوار فجلب على النفس خوفاً، وخشية، وحياء، واستولى على النفس وقهرها. فالولايات على النفوس من القلوب بالإمرة التي أعطيت القلوب، بما فيها

(١) سورة آل عمران آية : ١٥.

(٢) سورة آل عمران آية : ١٥.

(٣) سورة المنافقين آية : ٩.

من المعرفة، فعلى حسب تأديب القلب النفس ينال القلب ولاية وسلطانا.

فإذا أشرقت الأنوار من القلب فى الصدر، وخلا الصدر من دخان الشهوات، أبرز القلب سلطانه، فانقادت النفس، وسلست، وألقت بيدها مسلماً وانكمن العدو، واختشى^(١).

فمن لم يرض نفسه على ما وصفنا، وأعطاها منها من الحلال، وانكمش فى أعمال البر مستظهاً به. عجل له ثواب أعمال البر فى العاجل نوراً، ففى الصدر ذلك النور، وليس له من القوة ما يمنع النفس من قضاء النهمه، فيمضى فى الشهوات الحلال بلا نية، فيتعطل، ويبقى بلا حسنة ولا أجر، ومعه فساد الباطن، من حب الدنيا، والرغبة، والرغبة من المخلوقين، وخوف فوت الرزق، وخوف، والحسد، والحقد، وطلب العلو، وطلب العز، والجاه، وحب الرياسة، وحب الثناء والمدحة، والكبر، والفخر، والصلف والغضب، والحمية وسوء الظن، والبخل، والمن والأذى، والعجب والاتكال على العمل، ودواه كبيرة.

فكم من فعل سىي يظهر على أركان هذا، ومع هذه الدواهي. ففساد القلب، وخراب الصدر من الفرح بالدنيا، وأحوال النفس. كلما ازدادت النفس فرحاً بهذه الأشياء؛ قويت، واحتدت، واشتد سلطانها، حتى تصير شرهة أشرة، بطرة مستبدة^(٢).

(١) كمن فى المكان كُموناً: توارى واستخفى فى مكن لا يفظن له.

واكتمن : اختفى

واختشى من الخوف والخشية، وخشاه : خافه.

(٢) البطر: هو الزهو والتكبر، واطر النعمة استخفها فكفرها، وفى التنزيل العزيز ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ واطر الحق. أنكره ولم يقبله.

فإذا هويت شيئاً من الشهوات لم يملك القلب من أمرها شيئاً، ولم يتورع عن الحرام. وإن تورع عن الحرام لم يتنزّه عن الفضول، وإن تنزّه عن الفضول. يتناول ما يحتاج إليه على غفلة، وفقد النية والحسبة.

فإن تناول بنية وحسبة تناول على فقد ذكر المنّة، وإن تناول على ذكر المنّة، تناول على فقد رؤية المنّة، واللفظ، والبر. فهو أبداً في نقصان، في أى درجة كان؛ لأنه محبوب عن الله عز وجل، وإنما حجبته عن الله عز وجل، فرح بغير الله عز وجل.

[الفرح المحمود]

فالفرح المحمود على ضربين:

- فرح بالله عز وجل.

- وفرح بفضل الله ورحمته.

فالفرح بفضل الله وبرحمته ذكر النفس معه، والفرح بالله قد غاب ذكر النفس معه، والفرح بالله قد غاب ذكر النفس في ذكر مولاه.

فقال عز وجل في تنزيله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلِيفْرِحُوا﴾^(١).

وقال تعالى فيما روى: ﴿قُلْ لِلصَّادِقِينَ بِيْ فَافْرَحُوا، وَبِذِكْرِى فَتَنَعَمُوا﴾^(٢). وإنما يفرح بذكر عز وجل حين يرى منته عليه، وإنما يفرح بالله عز وجل من وصل إلى الله عز وجل، ومن كان مرعاه بين يديه في ملك في ملكه؛ والواصلون إلى

(١) سورة يونس آية: ٥٨.

قرب الله عز وجل مرعاهم تحت العرش في القربة.

فالأكياس صاروا إلى الله عز وجل في هذا الطريق، وتوقوا كل فرح فما فرحوا بشئ من الدنيا، أو بشئ من أعمال البر، وقالوا: إنما فساد قلوبنا من فرح النفس، لأن النفس إذا فرحت بشئ استولت على القلب، فلم ينفذ له شئ، فليس بنا التمييز بين الأعمال، لأننا لا نسير إلى الله تعالى بالأعمال، إنما نسير إليه بالقلوب نزاهة وطهارة.

فإنما يندس القلب بأفراح النفس؛ وصار القلب محجوباً عن الله عز وجل، فكانوا يصونون قلوبهم عن الفرح بكل شئ دق أو جل، للضرر الذي يحدث عنه. ومن جهل هذا الباب توقى الحرام، والشبهة، وانكمش في أعمال البر، فهو في الظاهر عامر، وفي الباطن خراب؛ لأن النفس شاركت القلب في تدبير العمل، فإذا شاركت أخذت نصيبها، والهوى مقرون بالنفس، فلا يتخلص العمل لصاحبه أبداً؛ وإنما صار هذا هكذا.

لأن الله عز وجل أوله قلوب العباد إلى ألوهيته، فمن صان قلبه عما تورد النفس عليه. بقى قلبه مع الله عز وجل. في جميع الأحوال، فهو أبداً واله بقاءً عز وجل^(١)، والواله تعلق القلب به، ومن لم يصن قلبه حتى أوردت النفس عليه أفراحها التي أورد عليها الهدى من باب النار، فقد صار وله قلبه إلى الهوى، فالصان أوله قلبه الله بأفراحه وحبه، والتارك للصيانة أوله قلبه الهوى بأفراحه إلى باب النار ولجت تلك الزينة.

فالكيس لما أبصر هذا التدبير من الله تعالى أنه خلق آدمي هكذا، وجعل

(١) أى شديد التعلق بالله عز وجل، وبلغ درجة من المحبة ثم الوجد ثم القربى.

فيه قلباً ونفساً، ثم جعل للقلوب محلاً في عظمته، حتى تسير القلوب إلى ذلك المحل فيكون مقامها هناك حتى إذا صار القلب إلى أن يستعمل جوارحه استعمالها بذكره، معظماً لشأنه، حافظاً لحدوده.

حتى إذا سار القلب إلى أن يستعمل جوارحه استعمالها بذكره، معظماً لشأنه، حافظاً لحدوده في جميع حركات جوارحه، مؤتمراً بأمره، متناهيّاً عن نهيه وإن دق، مراعيّاً لتدبيره، راضياً بحكمه.

وذلك كله بقوة ما يلاحظه من عظمته، وجلاله بين يديه، فيخشاه، ويتقيه، ويخافه، ويرجوه، ويستحي منه، ويهابه، ويعظمه.

وخلق بباب النار هذه الأفراح، والزينة من النار، وحفت النار بها^(١).

ثم خلق الهوى وأصله من الشيطان، فمر بهذه الأفراح إلى نفس هذا الآدمي، حتى تستعمل هذه الأشياء الملائمة لها، اللينة في ذاتها، الناعمة لجسدها، بذلك الفرح.

فابتلى عباده بهذين الفرحين: فرح هناك بين يدي عظمته. ومحله القلوب، وفرح هاهنا يورده الهوى، فيزيله الهوى عن ذلك الوله الذي في ذلك المحل، فيرده من هنا إلى ما هناك.

فمن التفت عن ذلك الوله إلى هذا الوله، حجب عن الله عز وجل، ونفى عن الوله، ورجع قلبه لما رجعت النفس إلى هذا الوله الذي أوله الهوى فخاب وخسر.

(١) هذا المعنى موجود في قوله ﷺ [حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ].

وكذلك حذر الله عز وجل عباده فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالَكُم وَلَا أَوْلَادَكُم عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(١).

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢).

فلم يعب المال، والولد، وإنما عاب الولد بالمال، والولد، لأن الفرح والولد بالمال والولد يلهيه عن ذكر الله عز وجل، إذا لم يكن فيه فرح بفضل الله ورحمته. ودعاه الهوى إلى أن يفرح بالمال، لزينه الدنيا وبهجتها ولذتها، وبالفرح بالولد، ليلعب به ويلهو، ويتزين به، ويستظهر به، ويعتضد.

فصار المال، والولد فتنة لحبه إياهما فلم يحب المال من أجل أنه عون له على طاعة الله عز وجل، ولم يحب الولد من أجل أنه غصن من شجرته، خرج ليعبد مولاه، فيكون له جاهاً عند الله عز وجل بما يعبد له، ولكنه أحبهما للتكاثر، والتفاخر، والتعاضد، تزينا بهما عند أهل الدنيا، كما قال الله عز وجل في تنزيله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٣).

ثم قال عز وجل: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾^(٤).

فمن أحبها للزينة، وفرح بها، كان فرحه للدنيا، وكان وله قلبه إلى الهوى. لا إلى الله عز وجل.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: "ما تحت أديم السماء إله يعبد من دون الله

(١) سورة المنافقين آية: ٩.

(٢) سورة المنافقين آية: ٩.

(٣) سورة الكهف آية: ٤٦.

(٤) سورة الكهف آية: ٤٦.

- ٣٠ -

عز وجل، أبغض إلى الله عز وجل من الهوى".

وقال : "أرأيت من اتخذ إلهه هواه" (١).

فلما اتبعوا الشهوات، ولم يرضوا نفوسهم. انقطعت القلوب عن محل
الالوهية إلى الهوى، ففرحت بما أورد الهوى عليها عن دنياه، فضاعت الحدود،
وذهبت العبودية، وخانوا الأمانة، فماتت قلوبهم عن الحياة بالحق القيوم.

وروى عن مالك بن دينار رحمه الله قال: مكتوب في بعض الكتب: (إن
سرك أن تحيا وتبلغ علم اليقين، فاحتل في كل حين أن تغلب شهوات الدنيا، فإنه
من يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله). فهذه شهوات الدنيا إذا كانت
مع الهوى.

فأما إذا تناولها وكان وله قلبه بين يدي الله تعالى في ملك العظمة، كان
على سبيل نبي الله تعالى سليمان عليه السلام، ملك الدنيا شرقها وغربها. وقلبه
أخضع القلوب لله عز وجل، فلم يضره، فقال تعالى: ﴿هذا عطاؤنا فأمّن أو أمسك
بغير حساب﴾ (٢).

ثم قال تعالى: ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ (٣) فإنما ارتفع الحساب
عنه، لأنه تناولها. وكان وله قلبه إلى الله عز وجل.

فقد كشفنا عن هذا الأمر بأن قلنا: إن قلب العبد موقوف بين يدي الوله
إلى محل العظمة، وبين الوله إلى الهوى، إلى محل باب النار.

(١) سورة الفرقان آية : ٤٢.

(٢) سورة ص آية ٣٩.

(٣) سورة ص آية ٤٠.

ففى العظمة أفراح وزينة، وبباب النار أفراح وزينة، فتلك الأفراح بالقلب، وهذه الأفراح التى بباب النار فى النفس، هو الهوى، وهو ربح من نفس النار؛ والذى يورد هذه الأفراح على القلب، هو نور المعرفة، ونور العقل، حتى يشخصا ببصر قلبك إلى نور العظمة، فيرجع عليك مع الأفراح؛ فالعباد موقوفون بين هاتين الحالتين.

[أهل المجاهدة]

فالإنسان منذ سقط من بطن أمه غدى بالشهوات، وكلما نشأ نشأ معه فرح، وذلك فرح وجود اللذة والنعمة، وفرح الحياة بما فيها من الزينة والبهجة؛ فلما شب وعقل قامت عليه الحجة.

فاقتفى الوفاء بالاسلام، وهو الأمر والنهى فأراد قلباً، فاستعصت عليه النفس، فاحتاج إلى مجاهدتها، حتى يقيم أمر الله عز وجل، ويفى بالاسلام الذى قبله، ويسعد غداً بجنته وجواره لأنه دعاه دعوة إلى الله عز وجل حين قال تعالى ﴿ففرّوا إلى الله﴾^(١).

ودعاه إلى دار السلام حين قال: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾^(٢) فصار أهل المجاهدة فرقتين:

فرقة حفظت الجوارح، وأدت الفرائض، وسارت إلى الله عز وجل قلباً، فلم تعرج على شئ حتى وصلت إلى الله عز وجل.

(١) سورة الذاريات آية : ٥٠.

(٢) سورة يونس آية : ٢٥.

وفرقه حفظت الجوارح، وأدت انفراس بجهد، وتعب، فى كد محافظة، وحراسة، ومع ذلك تخليط وتهافت فى الخطايا، وأدناس لا يستطيع أن يسلم منها، بمنزله راع أعطى سبعة أغنام، ليرعاها فى سبعة أودية فى تلك الأودية سموم قاتلة، وجرف هارية، وسباع ضارية، فهو قائم على أكمه مراقباً لتلك الأغنام.

فإن دعت سما بادرها بالبازهر، والسمن، واللبن، حتى يردها إلى العافية.

وإن تردت فى جرف فتكسرت، عمد إلى ما تكسر منها، فجبرها حتى تجبر.

وإن عرضت لها السباع زاد عنها. وطردها، وجدها فريسة استلبها من مخالبا وأنيابها، فداواها حتى تبرأ؛ فوكل العبد بجوارحه السبع ليحفظها، حتى لا تتعدى الحدود.

فإنه إذا تعدى الحدود، وعصى الله عز وجل، وخان الأمانة، وظلم نفسه، سقطت منزلته، فبعد عن الله عز وجل، فإذا بعد عنه. تباعد عن الرحمة، وصار مرفوضاً مخذولاً، فأسره العدو، وذهب به إلى النار.

لأنه إذا أسره العدو. ذهبت قوة القلب، واستولت النفس، فمرت فى كل شهوة جزافاً، فلم تبال حلالاً، ولا حراماً. فهلكت.

فهذا شأن العبد فى حفظ الجوارح، قال الله تعالى: ﴿والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون﴾^(١).

ثم قال الله عز وجل: ﴿أولئك فى جنات مكرمون﴾^(٢).

(١) سورة المؤمنين آية : ٨.

(٢) سورة المعارج : آية ٣٢.

-- ٣٣ --

حدثنا صالح بن عبد الله، حدثنا جرير، عن ليث، عن بني أبي نجيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه، قال: "أول خلق الله من الانسان فرجه، فقال: هذه أمانة خبأتها عندك، فلا ترسل منها شيئاً إلا بحقها".

فالفرج أمانة، والبصر أمانة، والسمع أمانة، واللسان أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، والبطن أمانة.

فإنما بدأ بالفرج، لأن جميع الأفراج تجتمع عند استعماله، وهو أقوى اللذات، وبه دخل النار أهله.

وقيل يارسول الله: ما يدخل الناس النار؟ قال: "الأجوفان: البطن والفرج" ^(١).

وإنما خبأه عند عبده، يعنى آدم عليه السلام، لأنه بدء الفرج، وهو سر الله عز وجل مقرون بسر القدر، لا ينكشف إلا لأهل الجنة فيها، فأمر بسر العودة لذلك، لأنه خلق مستور، خبأه الله عز وجل عندنا، وأمرنا بحفظه، وسماه سوءة، فحرص العدو على أن يهتك ذلك السر، حتى يبدو لنا.

وقبل ذلك كان مستوراً عن آدم وحواء عليهما السلام، وإنما بدأ بالمعصية، قال الله عز وجل: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا﴾ ^(٢).

فإنما صير كل جارحة من هذه السبع أمانة عندنا، لأن كل جارحة ذات شهوة، ومجمع الشهوات فى النفس، فإذا استعمل هذه الشهوات بإذن الله تعالى

(١) حديث شريف ورد فى سنن ابن ماجه ومسنند الامام أحمد بن حنبل بسند صحيح، لكنه ورد بلفظ

مشابه (.. قال الأجوفان: البطن والفرج).

(٢) سورة الأعراف آية : ٢٧.

وبلغ بها الحد الذى حده له، فهو مطلق له.
 وإذا تعدى إلى المخطور صار ملوماً، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾^(١).
 ثم أثنى عليهم فقال ﴿وَالَّذِينَ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾^(٢).
 فأزال الملامة عن استعماله فى نكاح، أو ملك يمين؛ ثم قال عز وجل
 ﴿فَمَنىٰ ابْتِغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَوُِّلْتُكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾^(٣) فدم الحد، وكذلك فى كل
 جارحه على هذه الصفة.

فالراعى يحفظ هذه الأغنام حتى يصلح ما فسد منها، على ما وصفنا،
 وكذلك الذى وقف بمجاهدته على نفسه، يحفظ جوارحه على الحدود، فى النظر،
 والكلام، والاستمتاع، والأخذ، والعطاء، والبطن، والفرج، فإذا غلب أو زل، أو
 نسى، أو غفل، عاد إلى مركز الطاعة بين يدى الله عز وجل بالاستغفار والتوبة؛
 فهذا عبد فى جهد الاستقامة، وباطنه غير مستقيم، لأن شهوات نفسه قائمة بين
 يديه، فهو يمنعها بجهد، ومتى ما غفل عنها زل وسقط.

[السير]

فطريق هذا العبد إلى دار السلام، ليس له وراء هذا مسلك وأما الذى راض
 نفسه وأدبها، ومنعها اللذات والشهوات، حتى طهر قلبه، واستوجب القربة بطهارة

(١) سورة النور آية : ٣٠

(٢) سورة المؤمنين آية : ٥ - ٦.

(٣) سورة المؤمنين آية : ٧.

قلبه، وآثر الفرح بالله على الفرح بما أورده الهوى على نفسه من أفراح الدنيا، فتح الله عز وجل له طريقاً إليه، فسار سيراً لم يلتفت إلى دار السلام.

لأنه لما أخذ في الرياضة أخذه بصدق، فلم يقف في الطريق على شيء مفروح به، ولو كان أسنى عمل من الأعمال، لأنه إذا توقي الفرح بلذات الدنيا وشهواتها، أمد القلب النور، وهان عليه رفض الشهوات، حتى إذا انكمش في أعمال البر، فرح القلب بتلك الأعمال، ليقطع عن النفس فرحها بذلك العمل، لأنها إذا فرحت بعمل من أعمال البر، اطمأنت إلى ذلك العمل.

فإذا اطمأنت إلى شيء دون الله عز وجل، فقد نترك سيره إليه ووقف على ذلك العمل، فاقضى منه صدق ذلك العمل، وهو أن تجد حلوة حب الشاء والمدحة لذلك العمل.

فهو وإن أخفاه وستره علمت نفسه أن الناس يحسون بذلك منه، ويشعرون به فيأنس بعلم الناس، وملاحظة أعينهم إليه، فلا يصفو له عمل، ولا يقدر أن يخلص بأكثر من هذا، فيقبل منه إذا رد الذي عرض له من ذلك قبول الصادقين لا قبول الصديقين.

فينبغي للمبتدئ في هذا الأمر أن يبدأ بالصوم، فيصوم شهرين متتابعين توبة من الله عز وجل.

وعد الله عز وجل في تنزيله أن شهرين توبة من الله عز وجل لعبده إذا تابعهما، ثم ينتقل من الصوم إلى الإفطار، فيطعم اليسير من الشيء يتجزأ به. فإن كان في اليوم مراراً كسرة كسرة، فهو أجود له من أن يملأ بطنه، فيصيرها أكله، وإنما ذلك محمود عند الأطباء.

فنقول أكلة واحدة كي يستمر بها، وذلك لا يدخل في هذا الباب لأن صاحب هذا لا يأكل حتى يتخم^(١)، إنما نشير عليه بأن يأكل كسرة قوتاً، فيداوى نفسه على ذلك وبين الأيام دسماً قليلاً، لنلا تهيج عليه الرياح، وتضطرب العروق، ويقطع الإدام والفواكه عن نفسه.

وكذلك في الكسوة، يجتزئ بالدون وما لا بدمنه.

وكذلك في سائر الأحوال التي للنفس فيها حظ من الفرح واللذة يقطعها عن نفسه، ومجالسة الإخوان، والنظر في الكتب. فهذا كله أفراح النفس وجماعها.

[صدق المريدين]

وفي الجملة: ينبغي أن يتفقد كل حال، وكل أمر للنفس فيه فرح واستبشار، من نعمه، أو وجوده للذة، أو أنس بشئ، فيقطعه عنها. وأنه كلما هويت النفس شيئاً أعطاها فرحت به، فينبغي له أن يمنعها. ولو شربة من ماء بارد. تريد أن تشربها، فيمنعها في تلك الفورة التي تشوقت لوجود بردها. ولذتها، حتى تسكن تلك الفورة، وينغص عليها^(٢).

ثم يسقيها بعد ذلك حتى يملأها غماً، ويوقرها همماً، لأن من شأنها إذا حبس عنها هذه الأفراح بهذه الأشياء، وبهذه الأحوال، فكأنه يصيرها في سجن، فيتقرب إلى الله عز وجل بغمها وهمها، فيعجل الله عز وجل له ثوابه نوراً على

(١) التخم: داء يصيب الإنسان من أكل الطعام أو امتلاء المعدة، والجمع: تخمات، وتخم.

(٢) التغصص: تكدير العيش، نغص عليه: كدر، نغص فلاناً: كدر عيشه: ويقال نغص عليه عيشه.

القلب، فيزداد القلب بذلك النور قوة على منع النفس شهواتها، وعلى أخذ سلطانها؛ ويستولى عليها. وهى تذلل، وتذبل. والعدو يخسأ، ويتحير، ويبطل كيده ومكره.

حتى إذا انتهى إلى أعمال البر، فكل عمل يراها تفرح به أو تأنس به، يقطع عنها ذلك العمل، حتى إنه لو قرأ القرآن فرجع فيه وغنى، منعها ذلك، لأنها متى وجدت شيئاً مفروحاً به، أنست، وأطمأنت إليه، ومدت القلب إلى ذلك الأنس، فمتى يصل القلب إلى الأنس بالله عز وجل، والطمأنينة إليه والوليه إلى عظمته، وصفاء الحب له، فهذا صدق المريدين ربهم عز وجل، والساترين بالصدق إليه، والطالين له فى منازل القربة.

فينبغى أن يتقى كل فرح للنفس فيه نصيب، حتى يصل إلى ربه تعالى، فإذا وصل إلى ربه عز وجل إمتلأ قلبه به فرحاً وسروراً، وبقيناً، فكل شئ مد إليه يداً من دنيا أو آخرة لم يضره، لأنه منه يقبل.

فإذا قبل منه حمده عليه وشكره، وكانت جوارحه مستقيمة، حافظة للحدود، معتصمة بخوف الله عز وجل، ولسانه ذاكر، وبدنه شاكر صابر، لأنه امتلأ قلبه بالله تعالى فرحاً، فلم تجد أفراح الدنيا فيه مكاناً.

فإذا فرح بشئ فى الدنيا، فإنما يفرح ببر الله تعالى له بذلك، وتقديره، وتدبيره، ولطفه. ولا يخون أمانته، ولا يكفر نعمه، ولا ينس ذكره، ولا يحدث عيباً.

فاستعمال جوارحه فى ذلك الشئ بمنزلة رجل شرب ترياقاً، فامتلات عروقه منه، فإن مد يده إلى حية، أو عقرب. لم يضره سمها، لأنه لا يجد السم مسلماً

إلى عروقه. فإذا لم يجد الترياق وجد السم مسلماً إلى عروقه، فجمد الدم الذى فى العروق من ذلك السم فمات.

فكذلك أفراح الدنيا تجرى فى العروق مجرى الدم، فتشمل الجوارح كلها، فتأخذ القلب فتسببه^(١)، فإذا دخلت الأنوار القلب بما راض نفسه بهذه الرياضة التى ذكرنا؛ عجل له ثواب رياضته، فانشرح الصدر، وانفسح.

فصارت الآخرة له كالمعينة، ولا حظ للملكوت بتلك العين: عين الفؤاد، فى فسحة ذلك النور المشرق فى الصدر، فرأى شأنا عجيباً من عظمة الله عز وجل وجلاله، ورأى من لطف الله عز وجل بالعبيد، وبره بهم، وإحسانه إليهم، ومننه عليهم.

فامتلاً القلب به فرحاً، وجرت الأفراح فى العروق، حتى امتلأت.

فمتى تجدد بعد ذلك أفراح الدنيا مسلماً إلى عروقه، حتى يكون لذلك الفرح سلطان يأخذ القلب فيسببه، فعندها يمد يده إلى ما أحل له من الطعام، والشراب، واللباس، والنكاح، والاحتواء إلى ما قدر له من دنياه، فيقبله من ربه عز وجل على تدبيره الذى دبر له.

فإن أخذ أخذ بحق، وإن أمسك أمسك بحق، وإن أعطى أعطى بحق، وقلبه حر من رق النفس وفتنتها.

وذلك الشئ، وذلك العمل بمنزلة رجل له ملء بيت دنانير يملكها، وإن أعطاه رجل صرة فيها عشرة دنانير، لم يعمل فى قلبه فرح تلك العطيّة عملاً يؤثر

(١) سبى القلب: أى أسره، يصير مأسوراً وتساوى القوم: سبى بعضهم بعضاً .. والسبى: المأسور وهو سبية أيضاً.

أثراً، ولا يستبين.

وإن كان عنده تلك الصرة، فسقطت منه حتى تويت، لم يبد عليه ضرر ذلك، ولا عمل على قلبه حزن ذلك، ولا هو فرح بما أصاب، ولا حزن على ما توى وذهب، لامتلأ قلبه بفرح تلك الدنانير، التي هي ملء بيت.

فكذلك من فرح قلبه بالله عز وجل، استغنى بالله عز وجل، فلا تملك قلبه بعد ذلك أفراح الدنيا، لأنه لا يستغنى بالدنيا، إنما غناه بالله تعالى؛ وهذا تأويل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس" (١).

فالنفس إذا استغنت، فغناها بغنى القلب المشرق نوره في صدره.

فإذا أطمأنت النفس بما أشرق فيها من النور بالله عز وجل، أشرق النور فيه إلى الله عز وجل، فقد رق عندها نوال الدنيا من أولها إلى آخرها، في جنب ما عاين القلب، وأورد من حياة على النفس.

فهذا شأن النفس إذا وصلت إلى ربها عز وجل بوصول القلب. فإنما قلنا إنه لا يدع لنفسه قراراً على شيء من أعمال البر.

فكلما فرحت النفس بشيء من الدنيا. أو بالعمل من أعمال البر، قطع عنها ذلك الفرح حتى يغمها، حتى يظهر القلب من أفراح النفس.

فهناك يرحم، لأنه إذا وصل إلى هذه المرتبة، بقي بلا أنس، ولا فرح؛ قد

(١) حديث شريف ورد بسند صحيح في كتب الصحاح وكتب السنن، لدى ابن ماجه في سننه،

والإمام أحمد في مسنده.

قطع نفسه أفراح الدين والدنيا، فهو يحفظ جوارحه عن كل ما نهى الله عز وجل وعن كل شئ من الفضول.

فيقيم الفرائض والسنن، لا يزيد عليها، كفى بهذا شغلاً، ولذلك قال رسول الله ﷺ: "أدِّ ما افترض الله عليك، تكن من أعبد الناس، واجتنب محارم الله عز وجل، تكن أروع الناس؛ وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً"^(١).

فهذا المؤمن المستكمل المستحق لاسم الإيمان عند إقامة هذه الخصال الثلاثة، فكفى بهذا شغلاً.

فهذا عبد صدق الله عز وجل في العبودية. وأما سائر الناس من غير أهل هذه الصفة، فهم متخبطون بظالون، يعبدون الله عز وجل على "الشايديجود"^(٢)، قد طابت أنفسهم ولذات أهوائهم.

وروى أن داود عليه السلام. قال: يارب، أمرتني أن أطهر بدني بالصوم والصلاة، فبم أطهر قلبي؟

قال: بالهموم، والغموم : يادادود.

فإنما تدنس القلب بالأفراح. أفراح النفس، فلا يطهر بمثل عمر نوح عليه السلام صوماً وصلاة، وإنما يطهر الصوم والصلاة أدناس الأركان بالمعصية، وإنما يطهر القلب ما يزيل عنه أدناس الفرح، وهو الهموم والغموم.

فلما منعت النفس شهواتها ذبلت، وطفئ تلهي شهواتها، وفوران دخان

(١) حديث شريف مشهور ورد بسند جيد في مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود.

(٢) الشايديجود : كلمة فارسية تعني عبادة غير صحيحة.

- ٤٩ -

هواها، فزالت أدناس الفرح من القلب، بذهاب الفرح، وظهر بالأنوار التي ولجت القلب بمنزلة سحائب تحجبك بظلمتها، وبما فيها من الغيرة عن الشمس.
فلما انقشعت السحائب، وتبددت. أشرقت الشمس، فعندها يصلح لقرب الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(١).
فالوسيلة والوصيلة بمعنى واحد. إلا أن الوصلة أن يوصل الشيء بالشيء.
فلما صار الأمر إلى ذكر الله عز وجل، أخرجه مخرج القربة، فقليل وسيلة، بذل بالسين صاداً، وبالصاد سيناً.
فيكون له من الألفاظ أشرفها وأعلاها وأنزهها، فأمرهم بابتغاء الوسيلة إليه بالتقوى.

فجماع التقوى ههنا هو ما وصفنا، إلى أن يتقى الفرح في كل شيء، تجدد النفس في ذلك الشيء فرحاً: من كلام، أو صيام، أو قيام، أو قعود، أو ذهاب، أو مشي، أو لباس، أو طعام، أو شراب، أو صاحب، أو أهل، أو ولد، إلا فيما لا بد منه كالمضطر، فإذا فعله على تلك الهيئة، فعله مع الاهتمام والاعتناء، أو مع الحزن، لأنك تجد ذلك الفعل لله عز وجل خالصاً، لا تأخذ النفس من ذلك الفعل لله حصتها.

فأنت تفعل ذلك الذي لا بد منه، فتكسر عليها فرحها، ونشاطها. لذلك التخليط الذي ترى في أمرك من قبلها، حتى يدوم عليها الغم والهم.

(١) سورة المائدة آية : ٣٥.

[جهاد الصديقين]

فجهاد الصديقين في هذا أن يلقوا الفرح بشئ سواه، حتى أوصلهم إلى نفسه، بعد أن امتلأت صدورهم غموماً، وهموماً، فلما أوصلهم قربهم، ومكّن لهم بين يديه، وملأهم فرحاً، فاشتاقوا إليه، فقربهم، فازدادوا شوقاً.

كلما زاد قربهم اشتد شوقهم. فازدادوا حتى عطشت قلوبهم، وامتلات قلوبهم أحزاناً، حتى قطعوا الحياة، والعمر بالأحزان.

وروى في الخبر، كان رسول الله ﷺ: "دائم الأحزان والفكر".

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما عبد الله عز وجل بمثل طول الحزن".

وحق لمثل هذا أن يحزن. فإنه وصل بقلبه إلى رب ماجد كريم، فرأى عظمته وجلاله، وعطفاً، وبراً، ونال منه حياً. فلم يشف الوصول إليه بتلك القربة. وذلك الفرح به، دون رؤيته في الجنة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: "المؤمن من آمن الناس بوائقه"، والورع سيد العمل، من لم يكن له ورع يرده عن معصية الله عز وجل إذ خلا بها، لم يعبأ الله بسائر عمله شيئاً^(١).

فذلك مخافة الله عز وجل في السر والعلانية، والاقتصاد في الفقر والغنى، والصدق عند الرضا والسخط.

(١) حديث شريف ورد بروايات مختلفة، ونجد في رواية مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه).

إلا أن المؤمن حاكم على نفسه، يرضى للناس ما يرضى لنفسه؛ والمؤمن حسن الخلق، "وأحب الخلق إلى الله عز وجل أحسنهم خلقاً"، وينال "بحسن خلقه درجة الصائم القائم"^(١) وهو راقد على فراشه.

لأنه رفع لقلبه علم، فهو يشهد مشاهد القيامة بقلبه، يعد نفسه ضعيفاً في بيته، وروحه عارية في بدنه، ليس بالمؤمن حقاً من لم يكن حملانه على نفسه، الناس منه في عناء، وهو من نفسه في عناء.

رحيم في طاعة الله عز وجل، بخيل على دينه، حي مطواع، وأول ما فات ابن آدم من دينه الحياء، خاشع القلب لله عز وجل، متواضع قد برئ من الكبر، قائم على قدميه، ينظر إلى الليل والنهار. يعلم أنهما في هدم عمره، لا يركن إلى الدنيا ركون الجاهل.

قال رسول الله ﷺ: "لا جرم أنه إذا خلف الدنيا خلف الهموم والأحزان، ولا حزن على المؤمن بعد الموت، بل فرحه وسروره مقيم بعد الموت".

حدثنا عبد الجبار بن العلاء بن يوسف بن عطيه قال:

سمعت ثابت البناني رحمه الله تعالى يذكر عن أنس رضى الله عنه، قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي إذا استقبله رجل شاب من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمناً بالله عز وجل حقاً. قال: أنظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقته، قال: يا رسول الله، عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظلمات نهارى، فكأنى بعرش ربي بارزاً، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وإلى أهل النار كيف يتعادون فيها.

(١) رواه أبو داود عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

قال: أبصرت فألزم. عبد نور الله الإيمان في قلبه.

فقال يارسول الله ادع الله لي بالشهادة؛ فدعا له رسول الله ﷺ، فنودي يوماً في الحيل، فكان أول فارس استشهد، وأول فارس ركب، فبلغ أمه. فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يارسول الله، أخبرني عن ابني إن يك في الجنة لم أبك عليه. ولم أحزن، وإن يك غير ذلك بكيت عليه ما عشت في الدنيا؟

فقال: "يا أم الحارث، إنها ليست جنة، ولكنها جنان؛ والحارس في الفردوس الأعلى". فرجعت وهي تضحك وتقول بخ بخ لك يا حارثة^(١).

قال أبو عبد الله رحمه الله تعالى: فإنما وصل العبد لله هذه المنزلة بتلك الأنوار. ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: "هذا عبد نور الله عز وجل الإيمان في قلبه".

حدثنا أبي محمد بن الحسن المكي، عن عبد العزيز بن أبي داود يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بمثل حديث يوسف، إلا أنه قال "لكأني أنظر إلى ربي عز وجل فوق عرشه يقضى بين خلقه".

فقد أعلم أن الإيمان في القلب، ولا يستنير في الصدر، لإحاطة غيوم الشهوات، وزين الذنوب بالقلب في الصدر. حتى إذا تاب العبد صقل قلبه بالتوبة فإذا جاهدتها، وراضها. حتى ينقطع دخان شهواتها، ونوران الهدى، جاءت الأنوار مدداً للإيمان الذي في القلب، فصار القلب ذا شعاع، وإشراق في الصدر.

(١) هذا حديث مشهور رواه البزار عن أنس بن مالك رضي الله عنه، ورواه الطبراني في الكبير من حديث الحارث بن مالك رضي الله عنه.

فإذا أشرق في صدره، فذلك عبد نور الله عز وجل الايمان في قلبه، فلما نوره استنار في صدره، فصدرت الأمور إلى الجوارح من ذلك النور، ومع الخوف، والخشية، والحياء، فعملت الجوارح على الحدود، والمقدار الذي أمر، مع البهاء والزينة.

وروى عن رسول الله ﷺ :

"إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا عاد نكت أخرى، فلا يزال ينكت حتى يسوء القلب كله، فإذا تاب ونزع صقل قلبه، فأعما ينصقل بالأنوار حتى يتجلى كالمرآة المجلية، فإذا صار كالمرآة تراءت له الدنيا على هيئتها، والآخرة على هيئتها والملكوت" (١).

فإذا لاحظ في الملكوت عظمة الله عز وجل جلاله، صارت الأنوار كلها نوراً واحداً، فامتلاً الصدر شعاعاً .

بمنزلة رجل نظر في المرآة، فأبصر صورة نفسه فيها، وأبصر ما بين يديه وما خلفه فيها. فإذا قابل بها عين الشمس، وقع الشعاع في البيت فأشرق البيت من تقابل النورين: نور عين الشمس ونور المرآة، فكذلك القلب إذا جلى فإنجلى .

فلاحظ العظمة والجلال. تجلت العظمة بين الحجاب لذلك القلب المجلى، لئله طاهر من أدناس المعاصي، وأدناس الشهوات، وأدناس الهوى . والتقى النوران فامتلاً القلب شعاعاً، فهناك تموت النفس، ويخضع القلب .

(١) حديث شريف رواه النسائي والترمذي وابن ماجة من طرق عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه .

حدثنا سفيان بن وكيع، وقتيبة بن سعيد، قالوا: - حدثنا عبد الوهاب الثقفي، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ .

"إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته" ^(١) ولكنه إذا تجلى الله عز وجل لشي من خلقه خشع له .

وكذلك لما تجلى لطور سيناء صارت البقعة التي وقع التجلى عليها كالهباء الميثوث، وما في جوارها ساخت في الأرض، فهي تذهب في تلك البحار التي من وراء الدنيا إلى يوم القيامة فلا تستقر، وما جوارها أبعد منها، صارت ثمانى فلق فطارت هرباً وفرقاً، حتى وقعت أربعة منها في حرم الله عز وجل، وأربعة في حرم الرسول ﷺ بالمدينة.

وخر موسى عليه الصلاة والسلام صعقاً فصارت الأرض كلها ذات بهجة وزينة، حتى ظهرت الكنوز على ظهر الأرض، وأبصرت العميان، وصح كل مريض، وبرئ كل زمن، وانفتحت الأرحام فحملت كل عقيم، وحل كل أجاج . فاعلم في هذا الحديث: أن الشمس إنما ذهب ضوءها خشعة لله عز وجل، وخشوعها خروجها في سربالها الذى سربت به من نور العرش، فتهافت الضوء، فكذلك النفس اذا أحست بالتجلى خشعت له عز وجل، أو خرجت من جميع شهواتها إلى الله عز وجل بما فيه من المعرفة والعقل فضرب، ثم قرب، ثم زيد نوراً، حتى كان له بين يديه، فهو يعبد كانه يراى.

وهو قول جبريل عليه السلام "ما الإحسان" ؟ قال .. أن تعبد الله عز وجل

(١) هذا الحديث الشريف رواه الإمام البخارى والنسائى وابن ماجه وأبى داود والمسند .

كأنك تراه" (١) .

فحسن العبادة مع التزائي، فإذا كان محجوباً. فإنه يعبد الله ولا يلتمس الحسن، والزينة في العبادة .

بمنزلة رجل دعاه الملك ليقطع ثوباً بين يديه ويخيطه، فلا يترك هذا الصانع من خفة اليد، وحسن الإبتداء، ووجازة الفعل، وإحكام الخياطة وزينتها، إلا صنعه بين يديه، ويريد أن يتجلى بذلك عنده، فيكتسب به جاهاً عنده ومنزلة .

والآخر رجل دعاه الملك، وقال: اذهب بهذا الثوب فقطعه، وخطه، وأنفذه إلى فلان الراعي، فلما غاب عنه رفع عنه باله، فكيف قطعه، وخاطه جوزه، لأنه لم يشعر برؤية الملك، ولا ذكر العرض عليه، وإن ما به ارتفاع العمل، فيقول: قد عملت، وأخذ الأجرة، وإنما جرأه على ذلك غفلته عن رؤية الملك، وعن العرض عليه ..

(السير إلى الله)

فعمال الله عز وجل ثلاثة أصناف .

عامل يعمل على التزائي، فلا يترك زينة، ولا مبادرة، ولا سرعة، ولا خفة يده، ولا طهارة، ولا تعظيماً، ولا وجازة، ولا مسابقة. إلا جاء بها، يريد أن يتحلى بذلك عند مولاه عز وجل .

وعامل ليس له هذا التزائي، وهو محجوب القلب بالشهوات، صادق في ابتغاء مرضاته، ذاكر للعرض عليه، فلا يتزين، ولا يبادر، ولا يعظم، ولا يسارع، ولا يوجز، ولا يسابق، ولكنه يعمل على الأحكام، وحفظ الحدود، وإتمام الأمر

(١) رواه الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو حديث طويل شمل السؤال عن الإسلام والإيمان والإحسان وعلامات الساعة .

بالأركان.

وعامل لا يذكر رؤية ربه عز وجل. أنه ناظر إليه في هذا العمل، ولا هو ذاكرًا لعرض الأعمال يوم القيامة، فهو يعمل على الغفلة على التجويز، فإنما يعمل كل صنف منهم على نوره الذى فى صدره.

فجملة ما وصفنا من أمر السير إلى الله تعالى. أن يتقى فرح النفس، أن يتركها حتى تفرح بشئ من أحوالها، أو بتناولها من الدنيا وأعمال البر، كلما ظهر فرحها نغص عليها بالمتع لها، والانتقال عنه حتى يملأها غمًا .

فيذوب الفرح الذى يتأدى إلى القلب، ويظهر النور، ويظهر فى ذلك النور الفرح بالله عز وجل .

لأن ذاك النور يؤدى به إلى صفات الله عز وجل، وإلى عظمته، وجلاله، وجماله، وكبريائه، وبهائه، وسؤدده، وكرمه وجوده، وبره، ملطفه، ومننه، وإحسانه، ورحمته.

فمحال أن يعتقد القلب هذا الفرح حتى يدوم له ذلك، وتزول عنه أفراح النفس، ثم يصير فى فرحه بالله عز وجل حزينًا، لأنه محبوس عنه برmq الحياة فى دار الدنيا، مشتاق إلى ربه عز وجل، قد أنس به واشتاق إلى لقائه، واستوحش من الدنيا وأهلها .

وهمته ذكر الله، وعبودية شهوته، وموت راحته ويوم عيده. وتحقيق ما وصفناه من ضرر فرح النفس. أن الله عز وجل حرم المعازف، والخمر على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم. وما نطق به الوحى فى شأن الخمر، وذلك أن الله عز وجل لما خلق الفرح، وجعل له بابًا.

فلما خلق الجنة، خرجت الأغراس من باب الرحمة، وخرج غرس العنب.
من باب الفرح، فذلك أول ما أكل آدم صلى الله عليه وسلم حين دخلها العنب،
فامتلاً فرحاً.

وروى أن رسول الله ﷺ سئل: دوماً أول ما يأكل أهل الجنة؟ قال:-
العنب: وأول ما أكل آدم العنب، فامتلاً فرحاً، ووضع من الفرح في تلك النار التي
فيها الزينة باب النار التي سميت شهوات .

فجعل ذلك الفرح حظ إبليس، حتى يأخذه فيضعه في الأشياء التي يغوى
الآدميين بها، فلما أضل إبليس المشركين بذلك الفرح، دخل الأشجار وكل معبود
من دون الله عز وجل، فصوّت منها بذلك الفرح .

فكل من يتبع صوته سبى ذلك الفرح قلبه، حتى يجيبه إلى الشرك، وإلى
عبادته. فهو يرى أنه يعبد الشجرة والوثن، وإنما يعبد الطاغوت .

وإبليس طغى حتى بلغ غاية الطغيان. فقليل: طاغوت. وذلك قول الله عز
وجل: كل حزب بما لديهم فرحون" بأديانهم، وإنما يفرحون بالله عز وجل، ولكن
غير المقبول منهم، وهم يحسبون أنهم مهتدون بذلك الفرح لأنهم تناولوه من
إبليس، لا من هداية الله عز وجل ومعرفته .

وإنما وصل إلى غواية آدم صلى الله عليه وسلم، بما استفرحوا بصوته من
الفرح .

روى في الخبر: أنه لما دخل الجنة صوت من مزمار له. حتى كادت حواء
تطير من الفرح .

فقالت: ما هذا الصوت ؟

قال: لسرورى بكمآنكما .

ثم قلب المزمار، فناح نياحة أخذ تقلبها، حتى امتلأت حواء خوفاً .

فقالت: ما هذا الصوت؟ فقال حزناس عليكما أن تموتا، أو تخرجا منها .

فهناك دلهما على شجرة الخلد، ولتخويف الزوال دلاهما بفرور، حتى ذاقا الشجرة، فلما همّا صارا محجوبين باهم، فلما ذاقا عريا من اللباس وانكشف العطاء عين الذنب، فوليا فى الجنة هارين. فبالفرح، خلص العدو إليه، حتى أكل من الشجرة فصرعه .^(١)

فحرم الله عز وجل الخمر لما فيها من ذلك الفرع، لأن إبليس لما سرق العنب من سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، وافتقد نوح عليه السلام بينه وبين نبي الله صلى الله عليه وسلم على الثلث والثلثين، فكل ما وجده نياً أو مطبوخاً فيه بقية من حظه لم تأكله النار، خاض فيه يديه بفرحه الذى أعطى، حتى يتحول ذلك الفرع من يده إلى ذلك الشراب .

وإنما يزيد، ويغلى بحرارة يده الملعونة، لأنه خلق من النار، فإذا شربه الشارب، وقد تحول ذلك الفرع من يديه فى ذلك الشراب، دب فى هذا الشارب، وانكمن العقل، لتدنس يده رجاسته .

فشاربه يحتمل مرارته، وذهاب عقله، وتلف ماله، وألم جسده، والآفات التى تحل به، فإنما يحتمل ذلك كله من أجل ذلك الفرع الذى دب فيه. حتى يصدّه عن ذكر الله عز وجل، وعن الصلاة.

(١) شجرة الخلد هى المشار إليها فى قوله تعالى (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) سورة طه: ١٢٠ وقد اختلف العلماء فى تعيينها .

ووجد سبيلاً إلى أن يحرس بينهم، ويغرى بعضهم ببعض، فحرمه الله عز وجل، لتلا يفرح. بفرح هو حظ إبليس لعنه الله تعالى .

فكذلك أصوات المعازف والملاهي، تلك الأصوات ممزوجة بالفرح الذي بيده، فلا يلتذ المستمع إلا بما يمازجه من الفرح الذي بيد العدو، فإذا ما زجه وسمع الآدمي هاج بالفرح منه، ودب في جميع جسده، وطرب حتى وثب ورقص كالقرد. فحرم الله عز وجل هذه المعازف، للفرح الممازج من حظ العدو فيها وأطلق هذه الأشياء التي لا غنية بالآدمي عنها، مما هو له غذاء، أو معاش، ثم حذرته أن يلهيه ذلك الفرح حتى يأثر، ويبطر، ويتعدى الحدود .

فالكيس حسم باب الفرح عن نفسه من من كل حلال أو حرام، ومن جميع أعمال البر، مما يجد في النفس استزواحاً إليه، وبه فرحاً، حتى ملأها غمماً، حتى طهر قلبه، وتجلت فيه أنوار العزيز، الماجد، الكريم، على ما ذكر بدياً . وعريت الملائكة من الشهوات، والجوارح، والأجسام، والأجواف، والضرورات. فلا يحتاجون إلى طعام، ولا شراب، ولا كسوة، ولا كن يستكنونه من الحر والبر. فتجت من فتن الآدميين وضروراتهم، ومكايد العدو، وأظهر خلقهم من التدبير بقوله "كن" (١) .

وعاملهم من ملك الجبروت، ومقاومهم في ملك الجلال، وأظهر خلقنا من

(١) كلمة (كن) التي بمعنى المشيئة (كن فيكون) وردت في ثمانية مواضع في الذكر الحكيم، منها :-

﴿وَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ البقرة: ١١٧

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ الأنعام : ٧٣ .

﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ مريم : ٣٥ .

-٥٢-

يده، وعاملنا من ملك الرأفة، والرحمة، ومقاومنا في ملك الحجة.
فالملائكة مجبورون على حال واحد، لا ينفكون ولا ينقلون عنها. والأدميون
خدم بين يديه عز وجل، يتقلبون من حال إلى حال، وكل أحوالهم خدمة .
وإنما صار هكذا. لأن المعرفة من الملائكة على الأبصار، والمعرفة من
الأدميين على القلوب، والقلب أمير على الجوارح .
فحركات الجوارح كلها من تقلب القلب بمشيثاته، ومشيثاته بمشيثات ربه
عز وجل.

فأى جارحة حركها فإنما محركها قلبه، والقلب شاخص إلى الله عز وجل
بوجهه في تلك الحركة فتلك خدمة منه له، مأخوذة هذه اللفظة من خدمة الساق،
لأن الآدمي إذا قام منتصباً، قام على خدمة ساقه، فهو بالقلب قائم بين يدي ربه عز
وجل.

ومنه تتأدى الحركات إلى الجوارح، حتى تظهر على الجوارح. فقيامه
ونهوضه إلى ربه عز وجل بتلك الحركة هو خدمته، وهو النية التي ينوى بها العبد
في كل عمل.

[إنما الأعمال بالنيات]

والنية النهوض، يقال في اللغة: ناء ينوء، أى نهض ينهض. فالقلب يرتحل
إلى الله عز وجل، حتى يصل إلى سدرة المنتهى. إن كان له طريق، فإن حبس في
الطريق فللتهمة احتبس، ولسوء الأدب منع، وانسد الطريق، فعلى أى حال كان،
فقد نهض من مكانه إن وجد الطريق أو لم يجد.

ويقول للجارحة التي تعمل ذلك العمل تحركى بذلك العمل فى حركاتك وأنفذى العمل على أثرى، فإنى واقف بالباب، أبتغى من ربى عز وجل مرضاته، بما ينفذ إليه على أثرى فهذه النية.

ثم الناس فى نياتهم على درجات، على تفاوت عقولهم، ولذلك قال رسول الله ﷺ، فيما يروى عنه، قال: "يعملون الناس الخير ويعطون أجورهم على قدر عقولهم".

وروى عن الله عز وجل: قال ياموسى: "إنما أجزى الناس على قدر عقولهم". قال له قائل: صف لنا شيئاً منه، كيف تتفاوت على قدر العقول؛ قال: مثل رجل دخل المسجد فوجد الصف الأول قد قام، فوقف فى الصف الثانى، فقد سقط من درجة الصف الأول.

ودرجته أنه جاء عن رسول الله ﷺ: "إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول".

وجاء: أن الرحمة تنزل على الإمام مائة رحمة، فيأخذ من بحاله خلفه^(١) مثل ما للإمام، ثم الذى عن يمينه إلى منتهى خمسة وسبعين، ثم الذى عن يساره خمسون. فمن دخل المسجد فوقف فى الصف الثانى عن غفلة لم ينل عن صلاة الرب عز وجل شيئاً ولا من هذه الرحمة التى وصفت عن بن عباس ؓ.

فمن دخل فنوى: أنى لو وجدت مكاناً لدخلت الصف الأول فبهذه النية استوى هو بالصف الأول، وله مثل أجورهم لما نوى، كأنه فيهم.

(١) حديث صحيح ورد فى سند الإمام أحمد، وأورده الطبرانى بسند جيد كذلك.

وورد كذلك فى صحيح الجامع (١٣٣/٢-١٣٤).

ثم إذا تمنى أن يدخل في الصف الأول ونوى ذلك، وامتنع وتخرج مخافة أن يؤذى مسلماً، أو يضيق عليه، يضاعف أجره على من في الصف الأول، بما اتقى أذى المسلم.

كذلك روى عن رسول الله ﷺ في شأن النية، وفي شأن التقوى؛ عن أبي كبشة الأنصاري رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "أحدثكم حديثاً فأحفظوه: إنما لدينا أربعة نفر:

عبد رزقه الله عز وجل علماً، ولم يرزقه مالا فهو صادق النية، يقول لو أنى لي مالا لعملت بعمل فلان، فأجرهما سواء.

وعبد رزقه الله عز وجل مالا ولم يرزقه علماً، فهو يتخبط في ماله بغير علم، فلا يتقى فيه ربا، ولا يصل فيه رحماً، ولا يعلم الله فيه حقاً، فهو بأخيث المنازل.

وعبد لم يرزقه الله عز وجل مالا ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مالا عملت بعمل فلان.

حدثنا الفضل بن محمد، حدثنا زريق بن الورد الرقي، حدثنا أسلم بن سالم، عن^(١) بن عبد الغفار بن ميمون عن عبد الملك الجزري، قال: قال رسول الله ﷺ "من ترك الصلاة في الصف الأول مخافة أن يؤذى مسلماً أو يزاحم أحداً، فصلى في الصف الثاني أو الثالث أضعف الله عز وجل أجره على من صلى في الصف الأول".

(١) حديث صحيح أخرجه النسائي والإمام أحمد في مسنده بسند جيد.

فهذا بعقله نال زيادة الثواب على الصف الأول.
والآخر بغفلته وجهله سقط عن هذا الثواب.
فهذا تفسير "إنما أجزى الناس على قدر عقولهم".
ولذلك قال رسول الله ﷺ ، فيما يروى عنه : ولا يعجبكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقدة عقله".
فالصادقون المخلطون: قلوبهم محجوبة بالشهوات. فنبتهم النهوض بالقلب.
إذا نهضوا لم يجدوا منفذا. فيقضون حيث بلغوا من الجور.
وأما الذين فتح لهم في الغيب. فإن قلوبهم تنهض إلى العلا حتى تبلغ مقامه.
فهناك يبتغي وأما الذين فتح لهم في الغيب. فإن قلوبهم تنهض إلى العلا. حتى تبلغ مقامه.
فهناك يبتغي مرضاة ربه تعالى. وحركات الجوارح عند فراغه من العمل تلحقه على أثره. فذلك النهوض هو نية.
والسابقون الذين وصلوا إلى الله عز وجل في مقامه، يرضى ربه عز وجل ثم يلحقه العمل على الأثر، فالنيات متفاوتة، فهؤلاء خدم.

[الملائكة]

وأما الملائكة - عليهم السلام ، فإنما يعملون في مصافهم، ومقاومهم على الأبصار؛ وإنما خص جبريل عليه السلام من بين الملائكة، لأنه خادم ربه عز وجل، لأنه بين يديه على ساقه يخدمه باختلاف الأحوال، وأهل السموات في مصافهم، فالملائكة في أعلى الخلق مكاناً وهم سخرة للآدميين.
فأما إسرافيل عليه السلام - فقابض الوحي، ومؤديه إلى جبريل عليه السلام

- ٥٦ -

وصاحب الصور، يدعوهم إلى الحشر وقبض الجزاء.

وأما جبريل عليه السلام فصاحب الرسالة.

وأما ميكائيل عليه السلام فقابض أرزاق الآدميين، والموكل بالقطر، والنبات والرياح لمعاش الآدميين.

وأما ملك الموت عليه السلام فقابض أرواحهم.

وأما حملة العرش فموكلون بالاستغفار للآدميين.

وأما الكوريون، وأهل عليين فموكلون بالاستغفار والتضرع، والبكاء على أهل الذنوب من الآدميين.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لما أسرى بى سمعت دويماً، فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا بكاء الكوريين على أهل الذنوب من أمتك".

وأما أهل السموات فموكلون فى صلاتهم بالاستغفار، ووفارة التقصير؛ وآخرون موكلون بالرياح، وآخرون موكلون بالسحاب، وآخرون موكلون بالشمس، وموكلون بالقمر، وموكلون بالنبات، وموكلون بالجبال، وموكلون بالبحار، وموكلون بالليل، والنهار، وموكلون بالحر، وموكلون بالبرد، وموكلون برزق الخلق. صباح كل يوم، وموكلون بالثلج، وموكلون بأعمالهم: حفظة كتبه، وموكلون بالحراسة، وهم المعقبات؛ وموكلون بالهداية على القلوب، وموكلون بالهداية فى الأسفار بالاستقامة، وموكلون باتمام الكلام.

فإذا قال: الحمد لله. قال الملك: رب العالمين؛ وإذا قال العبد: سبحان الله

قالت الملائكة: وبحمده، ويكتب ذلك لصاحبها^(١).

وموكلون بصلاة الآدميين في صفوفهم، فكلما زاد الرجل زاد معه ملك
رحمة، وموكلون بحجهم، وفي مشاهدتهم وموقفهم.
وموكلون بالزحف للنصر عند لقاء العدو؛ وموكلون بجنازتهم للتشييع.
فهم أمام الجنازة.

وموكلون بليلة القدر، ونزول الروح، والتسليم على الآدميين.

وموكلون بالأعياد، وحمل الجوائز.

وموكلون بالتثبيت للآدميين في أعمالهم.

وموكلون بنزع الأرواح منهم، ورفعها إلى الله عز وجل، في مقام العرض.
هذا كله في الدنيا.

ثم إذا قامت القيامة فموكل بنفخ الصور، وموكل بالبشرى للموحدين،
وموكل بحمل كسوة للآدميين.

وموكلون بالرحمة ليقسموها عليهم، وموكلون بجنات النار، ينادون ربهم
عز وجل، يسألونه السلامة.

^(١) ليس خافياً أن الملائكة يسددون عباد الله الصالحين ويثبتونهم، فهم يصلون على المؤمنين، وعلى
معلم الناس الخير، ويصلون على مَنْ يأتى للصلاة، ومن يكونون في الصف الأول، ومن يمكثون في
مصلاتهم بعد الصلاة، وعلى المتسحرين، وعلى الذين يصلون على النبي ﷺ، وعلى الذين يعودون
المرضى، ويؤمنون على دعاء المؤمنين، ويستغفرون للذين آمنوا، ويلتمسون مجالس الذكر،
ويسجلون الذين يحضرون الجمعة، ويتنزلون على من يقرأ القرآن، ويبلغون الرسول الكريم ﷺ
على أمته السلام، وهكذا.

- ٥٨ -

وموكلون بوزن الأعمال، وعرض الدواوين.
 وموكلون بحمل الأعمال من الخزائن إلى الموقف.
 وموكلون بتشيعهم إلى الجنان من الموقف.
 وموكلون في الجنان بالخزانة: قهارة وزوارة، وحملة هدايا من رب العالمين.
 وجبريل عليه السلام موكل في الدنيا بأداء الوحي، وتبليغ الرسالة، ويوم
 القيامة بوزن الأعمال، وفي الجنة بالنداء من بطنان العرش، للزيارة إلى رب العالمين.
 فوجدنا الملائكة، كلهم مسخرون لنا في الدنيا، ويوم القيامة، وفي الجنان
 إلى الأبد. فأدم عليه السلام حليفة الله عز وجل في أرضه، والملائكة جنس الخليفة.
 يعملون له ولولده. فاذكرنا في ولده. في ضرب ولده عمرته الملائكة وما أفسد
 ولده أصلحته الملائكة، وما دنس ولده غسلته الملائكة وطهرته.
 وروى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال: "قالت الملائكة: ياربنا منا
 المقربون، ومنا الصافون المسبحون، ومنا الكرام الكاتبون، ومنا ومنا، جعلت الدنيا
 لبنى آدم يأكلون ويشربون، فأجعل لنا الآخرة. قال: لن أفعل. فعادوه بمثل
 مقالته، فقال: لن أفعل. ثم عادوه في الثالثة، فقال: لن أفعل، لن أجعل صالح
 ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن فكان، هم عبادي المقربون، والملائكة
 عباد مجبورون ومكرمون بالعبادة والطهارة، والآدميون خدم وتجار معاملون.

[المعرفة]

فالمعرفة رءوس أموالمهم، والحركات تجارتهم، ومرضاة الله عز وجل
 أرباحهم.

قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُتَوَكِّمٍ﴾ تقلبوا في مرضاته، وثبوا في جناته، تحت عرشه في جواره، فأكرم الله تعالى هذا المؤمن بمعرفته، فأحرزه في ذمته، وحرم عرضه ودمه وماله، وعظم وحرمته، فأعلمهم بالله أعظمهم حرمة، وأقربهم وسيلة، وأكرمهم عليه.

فمثل العالم به كمثل رجل نظر إلى شخص رجل، حتى عرفه بالوجه، فهو ساكن القلب، حتى إذا عرفه بخصلة من خصال الشرف، فوجد قلبه قد تغير له إلى التعظيم والإجلال.

فإن كان قد جمعت هذه الخصال في رجل واحد، مما وصف الله عز وجل بها نفسه، من الجود والغنى، والرأفة والرحمة، والسماحة، والكرم، والمعرفة بالأمور، والقوة والتدبير، ومحاسن الأخلاق، عظم شأن الرجل عندك، حتى تهتم في ذكره وأوصافه.

فمن كشف له الغطاء حتى عرف ربه عز وجل بأسمائه الحسنى، وبأمثاله العلا، كان أسبى لقلبه، وأهج لذكره.

وابن آدم مطبوع على سبعة: وهى الغفلة، والشك، والشرك، والرغبة، والرغبة، والشهوة، والغضب. فهذه سبعة أخلاق.

فإذا جاءه نور الهداية حتى عرف ربه عز وجل ووحدته، ذهب الغفلة، وذهب الشك، والشرك. فهو يعلم ربه يقيناً، وينفى عنه الشرك، وزال الشك عنه. ثم جاءت الشهوة، فأظلم الصدر بدخانها، وفورانها، ذهب بضوء علمه، واستنارته، وتخير في أمر ربه عز وجل كالشاك، وظهر شرك الأسباب، فكلما ازداد العبد معرفة وعلماً بربه عز وجل استنار قلبه، وصدره، وانتقص من الغفلة.

ومن هذه الخصال السبعة كلها، حتى يمتلئ صدره من عظمة الله عز وجل وجلاله، فعندما كشف الغطاء، وصار يقيناً، وزايله شرك الأسباب، وماتت الشهوة، وذهب الغضب، وذهبت الرغبة، والرغبة، فلا يرغب إلا الله عز وجل، ولا يرهب إلا منه، ولا يغضب إلا ذات الله عز وجل. والله، ولا يشتغل بشهوة إلا بذكر الله عز وجل.

[رياضة النفس]

قال له قائل: صف لنا من رياضة النفس شيئاً. قال: إن النفس إذا اعتادت اللذة، والشهوة، والعمل، بالهوى، أقبل على فطمها عن العادة في كل شيء، فكلما اشتد عليها فطم شيء فأقبل قبل ذلك الشيء حتى تعظمها عنه، حتى يصير قلبك حراً، يألف مع الله عز وجل بربه ولطفه.

فقد رأيت البازي كيف يلقي في البيت، وتخط عينه، حتى ينقطع عن الطيران، ويربى باللحم، ويرفق به، حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفاً، إذا دعاه فسمع صوته أجابه.

فكذلك النفس إنما تحب ربها عز وجل فيما أمرها بعد فطامها من عادات الأمور التي اشتتت ولذت، فإذا فطمها ألزمها الدعاء، وثناء الرب عز وجل، ومدائح، ونجواه، حتى تأنس بذلك، وتألف الذكر، حتى ينكشف الغطاء بعد ذلك، فيألف ربه عز وجل.

وكذلك تجد الصبي قد ألف ثدي أمه. حتى لا يكاد يصبر عنه ساعة، فإذا فطمته اشتد على الصبي، وبكى، وقلق، فإذا دام الفطم نسيه وأقبل على الطعام، والشراب، فكلما وجد حلاوة الأطعمة والأشربة هجر الثدي، وعاف ذكر اللبن.

وكذلك تجد الدابة تؤخذ من الدواب السائمة، لتؤدب وتعود الركوب،
ففى الابتداء تنفر عن اللجام، والسرج، فتشكل حتى تسرج وتلجم حتى تعتاد،
وتعلم السير حتى تصير أذننها إلى العنان وقلبها إلى إشارات الراكب بذلك العنان.

فإذا بلغ بها القنطرة. وثبت وثبة لاتدعها تجور، فتعتاد ذلك، فليس فى كل
مكان يوجد قنطرة، فيعودها الوثب وسيرها فى جلبه الصناعين، مثل الحدادين،
والنجارين.

فإذا نفرت من تلك الأصوات أو تركت سيرها. أدبها حتى لا تنفر ولا
تتحير، حتى تصير أديبة سيورة.

فكذلك الآدمى، يؤدب كما تؤدب هذه الطيور، والدواب بالفطم عن
عاداتها، وكل شئ تجد النفس لذته فى وقت تفرح بذلك الشئ. فإذا فرحت به فقد
تدنس بذلك الفرح، فيصير غشاء عليه، حجاباً له من ذلك الفرح.

فكان أهل الصدق فى هذه الطرق يلزمون هذا الباب الذى وصفت، فكل
شئ تفرح نفوسهم به من وجود لذة ذلك الشئ كائناً ما كان، من طعام، أو
شراب، أو لباس، أو أهل، أو ولد، أو أخ، أو مؤنس، أو أصحاب، أو أمكنة، أو
عرض من عروض الدنيا، فكانوا يتقون النسخ لذلك، فيأخذون من ذلك الشئ
الذى لا بد لهم منه على الضرورة، ثم يهربون من لذته خوفاً على النفس أن تفرح
بذلك.

فإذا دام على ذلك صاحبه، فذلك تقوى الباطن.

وأما تقوى الظاهر: فهو حفظ الجوارح مع الخلق، والملائكة.

فإذا فعل ذلك فأدى الفرائض لمواقبتها، وحدودها، واستعان على النفس

برؤية المولى والمقابر، وأهل السجون، والمواضع التي فيها النيران العظيمة، من
الأتون ومذاب جواهر الزجاج، فإن في ذلك قمعاً للنفس أو رثه فعله بنفسه الغم،
ومن الغم الهم، والأحزان.

ولذلك قال رسول الله ﷺ "ما عبد الله عز وجل بمثل طول الأحزان"^(١).

تم كتاب الرياضة بحمد الله ومنه

وصلى الله على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً

(١) لم نعثر على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مصادر.

المراجع

- ١- كتب الأحاديث الصحاح، وكتب السنن الستة.
ومسند الإمام أحمد بن حنبل.
والمعجم المفهرس لأحاديث الرسول ﷺ .
وصحيح الجامع الصغير، والكبير.
- ٢- القواميس اللغوية: القاموس المحيظ، المعجم الوسيط.
- ٣- تفسير الإمام القرطبي الجامع.
وتفسير الإمام ابن كثير.
- ٤- المؤلفات المنشورة للحكيم الترمذي مثل:
- أدب النفس.
- إثبات العقل.
- بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب.
- ختم الأولياء.
- شفاء العلل.
- علم الأولياء.
- غرس العارفين.
- غور الأمور.

— ٦٤ —

- منازل العباد من العبادة.
- نواذر الأصول في معرفة أحاديث الرسول.
- الأمثال من القرآن والسنة.
- الحج وأسراره.
- تحصيل نظائر القرآن.
- ٥ - إغاثة اللهفان: ابن القيم.
- ٦ - بصائر ذوي التمييز: الفيروز آبادي.
- ٧ - معارج القبول: الشيخ حافظ الحكمي.

فهرست الكتاب

<u>رقم الصفحة</u>	<u>اسم الموضوع</u>
٣	- مقدمة المحققين
٧	- مقدمة الكتاب
٨	- خلق آدم
١١	- صفات ظاهرية باطنة
١٥	- المجاهدة
٢٠	- الأكياس
٢٢	- الرياضة
٢٦	- الفرع المحمود
٣١	- أهل المجاهدة
٣٤	- [السير]
٣٦	- صدق المريدين
٤٢	- جهاد الصادقين
٤٧	- السير إلى الله
٥٢	- إنما الأعمال بالنيات
٥٥	- الملائكة

-٦٧-

رقم الصفحة

اسم الموضوع

٥٨

- المعرفة

٦٠

- رياضة النفس

٦٣

- المراجع

٦٥

- الفهرس

Bibliotheca Alexandrina



0352902

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / الظاهر
ب ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس ٥٩٣٦٢٧٧